رسائل حب بطعم الملح

بركات، كريم

رسائل حب بطعم الملح / كريم بركات

روافد للنشر والتوزيع. 2017 ط أولى، القاهرة

240 ص ؛ 22 سم

1-رواية

2-العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: 813 .008

رقم الإيداع: **11571**/2017

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -329 -6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: محمد عيد

كريم بركات

رسائل حب بطعم الملح

"من يحيى إلى سارة"

رواية

الإهداء

إلى روح أبي.. فراشة ترفرف ماتزال في جيب قلبي الداخلي!

إلى ابتسامته الوديعة.. مظلتي

إلى كفيه السمراوين.. عكازين أتوكأ عليهما وأهش بهما على أملي

وإلى حضن أمي.. واحة السكينة

إلى تلك الشامة على جبينها.. سرنا

"هذه رواية، مختلقة بالكامل من الخيال، بكل ما يدور بها من وقائع، وكل ما فيها من شخصيات، باستثناء بعض أسماء الأحياء أو المكتبات، وهي مذكورة بأسمائها للإيهام، بينما الوقائع والأشخاص متخيلة في إطار من الفانتازيا، ولو تشابه أي مما جاء بها من وقائع وأسماء مع نظائر من الواقع فسيكون ذلك محض مصادفة"

المؤلف

"هذه الأوراق أراها، محزنة، محيرة، وكئيبة. لكنها صادقة، صدق الدم النازف من جرح جديد.

هي أوراق حقيقية، كان من الضروري أن تكتب؛ لأنها كانت البديل الوحيد للهروب مع أي شيطان أو للانتحار."

علاء الديب – وقفة قبل المنحدر

الرسالة صفر

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

مساء مشرق وسعيد ككل ما يمسه طيفك.

أتذكرين حين لُمتك لأنك تستهلين خطاباتك لي بـ عزيزي يحيى؟
ها أنا أسحب لومي..

اكتشفت أن معك حق ربما تكون حبيبي أنسب للمحادثة لكن عزيزي أو عزيزتي لها وقع ألطف في الكتابة. لا تسأليني عن السبب فمنذ أبديت إعجابك بأني أتصرف وفق حدسي وانطباعاتي الأولية حتى ولو لم تكن مبررة وأنا أبالغ جدا في هذا المجال.

أتدرين! حين أتخيل لقاءنا المرتقب لا أستطيع أن أتخيل في المشهد إلا كل ما هو أنيق.. أتخيلك ترتدين فستانا من البروكار الدمشقي أحمر قان بلا أكمام ضيق من الأعلى وحتى الخصر ثم يبدأ في الاتساع حتى الكعب. تجلسين إلى بيانو في بهو فسيح لأحد القصور.. تعزفين إحدى مقطوعات "شوبان" لابد أن يكون "شوبان"..

فكرت في "رخمانينوف" أو "ليست" لكن لم تعجبني أسماؤهما اختيار بيتهوفن أيضا سيكون مبتذلا إلى حد كبير نطق (شوبا)

بالفرنسية سيجعلك أكثر أناقة وأنت تحكين لاشبيناتك عن اللقاء بينما تضحكين من الفرحة والإثارة. ثم أقترب منك ببطء، أضع كأس الشمبانيا الذي أحمله على حافة البيانو.. لا تقلقي الشمبانيا لاستكمال حالة الأناقة فقط، ثم سأخلع قبعتي وأنحني أمامك بلطف كأحد نبلاء القرن التاسع عشر الإنجليز الذين يظهرون في الافلام التاريخية.. لابد أن يكون من الإنجليز، الفرنسيين يبالغون في التأنق بما يليق أكثر بالنساء. سأمد إليك يدي.. ستقومين بدلال تترنح له أعمدة القصر الضخمة وسنرقص على أنغام البيانو الذي سيستمر في العزف لست وثلاثين ساعة قادمة بعد أن مسته أناملك، لن نتحدث..

لن أنظر في عينيك، لا أريد أن أحترق كفراشة أغواها النور، فقط سندور ونرقص.. ونرقص.. ونرقص.. وفي الفجر، حين أكون وحيدا في غرفتي المظلمة إلا من نورك في أحلامي

سأدون في دفتري ست كلمات أخيرة.. "يمكنني الآن أن أموت في سلام"

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الأولى

عزيزتي سارة..

آه لو تعلمين يا سارة كم أحبك!

آه بالمناسبة.. أود أن أوجه نظرك أن عدم [illegible]ي عن أحوالك ليس نوعا من عدم الاكتراث أبدا. أيعقل ذلك! الحكاية وما فيها أنني أكون دوما مطمئنا عليك طالما أن قلبي مازال ينبض ذلك لأن لدي يقينا خفيا بأنك لو مسك مكروه لاقدر الله فإن قلبي سيتوقف فورا عن الخفقان.

سارة..

أريد أن أكتب لك كلاما مختلفا، فكرت أن أكتب لك عن "فوكو" و"دريدا" لا أظن أن هناك عاشقا كتب لمحبوبته عن الفلاسفة! "دريدا" لا أعرف عنه كثيرا.. ليس أكثر من أن الجميلة "هبه رؤوف عزت" عندما نطقت اسمه بدت أكثر رقة من المعتاد، كان هذا في ندوتها عن كتاب "حالة الاستثناء" للإيطالي "اجامبين" الذي يقبع في لائحة الانتظار لدي منذ زمن.

أما "فوكو" فهو رجل رقيق متعاطف مع الأقليات بجميع أنواعها، والجميل أنه في كتابه الأشهر "تاريخ الجنون" يتبنى وجهة نظري نفسها التي أخبرتك بها من قبل.

لا.. لا ترفعي حاجبيك الجميلين وتبدين دهشتك هكذا.. نعم فوكو يقول مثلي تماما أن الجنون مجرد وجهة نظر الأغلبية عن الأقلية.

سارة..

اعذريني لن أستفيض في هذا الحديث..

لا أرغب أن يعتبرني ضابط الأمن الوطني الذي يراقب مراسلاتنا مثقفا وواعيا فيصدر على الفور أمر اعتقالي:

(اقبضوا على هذا الغبي المثقف)

لا لا.. لايجب أن يحملني حبي للاختلاف على هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر فأنا كما تعلمين ليس لدي جنسية أجنبية.

أتعرفين ما السؤال الذي يؤرقني ياسارة؟ لماذا يحتقرنا حكامنا إلى هذا الحد؟؟ لماذا يعاملونا بهذا الغل؟؟ لو أنهم فقط يخبروننا بالخطأ الذي اقترفناه في حقهم كي نتبرأ منه ونتوب على الملأ.

لا لا لا..

لقد زاد الأمر عن الحد وكأن هذا ما كان ينقصني.. أن أتوقف عن حديث الفلسفة لأتحدث في السياسة لابد أنني جننت. اغفر لي يا سعادة الباشا الضابط فأنا مجرد غبي مجنون كما تفضلت ولا تصدق ما قلته بالأعلى عن أن الجنون وجهة نظر.. الجنون مرض خطير يصيب الشعوب الناكرة للجميل أمثالنا فتجعلهم

يطالبون بأشياء سخيفة مثل الحرية والعدالة.. فاغفر لي بحكمتك التاريخية المعهودة.

أما أنت يا سارة فأنا مضطر أقطع حديثي معك الآن حتى أبحث عن علاج لهلوستي تلك، وسأتفهم جيدا إذا أنكرت أي علاقة لك بصاحب هذه الرسالة الملغمة وأعدك أن أحدثك في الرسالة القادمة عن ذلك البرنامج التافه الذي شاهدته على قناة تافهة بينما أتناول طعاما تافها بعد عودتي من عملي التافه بالأمس.

هذا طبعا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثانية

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

غريب هذا الكائن المسمى بالإنسان يا سارة!

أتذكرين السؤال الذي سألتني إياه قبل عام عندما قلت بدلالك الفتان: لماذا تحبني؟ يومها أجبتك: أن ذاك سؤال كل إجاباته كاذبة.

وقلت لي: أنت تراوغ.

فقلت لك: أنا أحب..

أتذكرين ذاك السؤال؟؟

ليلة أمس استيقظت فجأة قبيل الفجر بسبب رغبة عارمة في أن أجيب عليه!

لا لم يكن هذا من فعل الشيطان فقد صليت الفجر جماعة في المسجد المقابل لبيتنا حتى أنني كنت الإمام..

تخيلي!

غاب إمام المسجد الرسمي فقدمني المصلون مكانه.

هل يبدو شكلي كإمام رسمي ؟؟ هل أبدو بائسا إلى هذا الحد؟؟

لابد أن تقرير الجهات الأمنية الذي يحدد له الآيات التي سيقرؤها في الصلاة قد تأخر عليه فآثر السلامة وصلى بالبيت بناء على نصيحة زوجته الماكرة.

أحببتك يا سارة لسببين: أما الأول فلأنك تنطقين اسمي بطريقة مميزة للغاية ورائعة للغاية وساحرة للغاية.. فحينما أسمعك تقولين (يحـ..يا) بتلك الطريقة الساحرة أظن أنه اسم جديد غير ذلك الاسم الذي يناديني به من سواك.. فالياء لم تبد أبدا هي نفسها تلك (الياء بطة) التي علمتنا إياها أبله نجاة في الابتدائية منذ سنوات قبل أن يصبح لقب المدرسات هو (مس) كدليل على أن المرء ابن ناس كويسين. الأنسب لحرف (الياء) الذي تنطقينه أن يسمى (ياء كناريا) أو (ياء كروان) أو أي اسم يليق برقتك كما يجب أن يكتب أيضا بطريقة مميزة كأن يوضع تحته خمس نقاط ويحاط بهالة من نور أو يرسم على هيئة وردة أو قلب.

أما حرف (الحاء) فيستحيل معك حرفا مخاتلا خداعا فلا أعرف هل هو (حاء) أم (هاء) وكأنه حرف جديد خلقته شفتاك.
وأما المقطع الاخير من اسمي.. حرف النداء (يا) فكأنك حين تنطقينه تبعثين الحياة من مرقدها كأنه استدعاء للبهجة والفرح والحب.

(يحـ..يا) تقوليها هكذا بنبرتك السحرية المعجونة من خمر الجنة.. تلك النبرة التي تقف على عتبات الوعي فلا تُسمع إلا بالقلب.. وحده القلب..

أسمعها فتهتف أعماقي

يا ويلك يا يحيا..

يا ويلك من هذا السحر.

سارة..

تقتلني الحاجة إلى النوم هانوم معذرة سأذكر لك السبب الآخر في الرسالة القادمة.. هذا طبعا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثالثة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

وهل يجرؤ ألا يكون؟؟

سارة..

النوم ودع مقلتي، والليل ردد أنتي، والفجر من غير ابتسامك لا يبدد وحشتي.

أو كما قال الشاعر:

هلا أرسلت لي عبر الفيديكس بعضا من جنيات الهيليوم اللائي ينسبن من بين شفتيتك حين تبتسمين فيداعبن الروح لتهدأ وتستكين كي أستعين بهن على مثل هذه الليلة الطويلة كفاصل إعلاني على قناة أفلام عربية مسروقة

سأكون ممتنا إن فعلت.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الرابعة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

لا أدري لماذا أفترض دوما أنك تقرئين رسالتي في المساء؟! بيد أني أظن الليل أنسب للعاشقين (بيد أني؟! هل رأيت عاشقا سواي يكتب لمحبوبته بيد أني)

سارة..

كان عليك أن تتمسكي بأن أخبرك بالسبب الثاني في الرسالة قبل الماضية..

ألم أخبرك في أولها أن الانسان كائن غريب متقلب المزاج! ها أنا اليوم أعجز عن معرفة السبب الثاني مما قد يغضب مني الباشا الضابط ويظن أنني كنت.. (بشتغله) فهو لا يفهم يا سارة، لا يعرف أن المشاعر غير الأفكار.. الأفكار ما أن تبلورت يمكننا التعبير عنها في أي وقت نختار. أما المشاعر فهي دوما عنيدة، حرون، معتزة بنفسها تأبى أن تخرج إلا في الوقت الذي تحدده هي لا نحن.

سارة!

أين رسائلك؟؟

أرسلي لي رسالة في أقرب وقت حتى لو كتبت فيها اسمي وجملتي المفضلة فقط لا تغيبي يا سارة فأنا في بعدك أكون ضائعا وتائها..

أشعر أنني بلا أهمية وأن هناك ثمة خطأ في معادلة الحياة.. أشعر بشعور أسوأ مما شعر به كتاب ألف ليلة وليلة حين وضعوه تحت رجل السفرة في فيلم صعيدي في الجامعة الامريكية.

ملحوظة: كان هذا في المشهد الذي هتف فيه هنيدي "ساندين الطرابيزة بكتاب ألف وليلة يا جهلة" فإذا كنت يا حضرة الباشا الضابط لا تعرف الفيلم فلا داعي للبحث عنه على اليوتيوب فهو لا يحتوي على أي مقاطع ساخنة من النوعية التي تتبادلها مع زملائك عبر البلوتوث فضلا عن أنه ليس من إنتاج السبكي!

سارة هل سمعت أم كلثوم وهي تقول " كنت باشتاقلك وأنا وأنت هنا.. بيني وبينك.. خطوتين"!

مؤخرا لم أعد أستسيغ أغانيها.

ما معنى أن أقول لحبيبتي "صوتك.. نظراتك.. همساتك شيء مش معقول شيء خالي الدنيا زهور على طول وشموع علي طول"

أو أن أقول لها "من أجل عينيك عشقت الهوى".

هذا كله معلوم من الحب بالضرورة وقول المعلوم بالضرورة محض ركاكة لا تليق بنا.

أُفضل فيروز أو منير، بمناسبة منير هل تعلمين أنني لم أستمع لـ "شجر اللمون" منذ آخر لقاء لنا لابد أن أسمعها فور انتهائي من هذه الرسالة.

أرأيت؟!

سرقنا الوقت ونسيت أن أحكي لك عن ذلك البرنامج التافه الذي شاهدته على القناة التافه بينما أتناول طعامي التافه بعد عودتي من عملي التافه في اليوم السابق لليوم الذي كتبت لك فيه رسالتي قبل السابقة.

ترى ماذا سيقول عني الباشا الضابط هذه المرة؟

أتظنيه يغفرها لي كما غفر الأولى؟

على العموم أعدك.. وأعده أن أحكي لك عن ذلك البرنامج في الرسالة القادمة..

هذا طبعا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الخامسة

عزيزتي سارة..

سامحك الله، ألم أؤكد عليك أكثر من مرة ألا تكتبي هذه الجملة بدون أن ترفقي مع الرسالة القليل من "أملاح الشم".. لقد فقدت الوعي ليوم كامل بعد أن قرأتها وتغيبت عن العمل مما منح مديري السادي الشرير الكثير من السعادة وهو يخصم يومين من الراتب لكن ليس الخصم ما يغيظني كما تعلمين.

ملحوظة: ليس الأمر كما تظن يا حضرة الباشا الضابط أملاح الشم هي كربونات الأمونيوم المعروفة في أوساط العامة بالنشادر وهو مسحوق يستخدم لإنعاش حالات الإغماء وفقدان الوعي ولا ينصح باستخدامه مع الرياضيين أو الأشخاص الذين فقدوا وعيهم بسبب العنف أو التعذيب في مقرات أمن الدولة. سارة ما هذا الذي قلته؟

أبالغ؟!

الأمر لا يتعلق بالأهمية يا سارة بقدر ما يتعلق بالغباء والجهل!

لا يغرك سماحهم لنا بتبادل الرسائل فهذا يرجع لقدرتنا على منحهم التسلية الكافية.. إنها مسألة وقت يا عزيزتي.. نحن بالفعل تحت المراقبة يجب أن نتصرف على هذا الأساس يا سارة.

لقد وضع الباشا الضابط ملفينا على مكتبه ثم نادى على أحمد سبع الليل التابع له (فكل ضابط لديه سبع ليل خاص به) ثم قال له بلهجة عصبية آمرة مشيرا إلى الملفين: ضع هذا الغبي وحبيبته الجميلة تحت المراقبة.

لم ترحني الطريقة التي نطق بها كلمة (الجميلة) يا سارة وشعرت بالغيرة الشديدة عليك وأنا أتخيل هذا المنحط وهو ينظر إلى صورتك على الملف.

ملحوظة2: حضرة الباشا يستحسن ألا تقرأ الفقرة السابقة.

سارة..

إن كنت مازلت بحاجة لمثال يجسد لك فكرة (الأشخاص الطيبين لدرجة مؤذية) التي حدثتك عنها سابقا فإن أحمد سبع الليل خير مثال لذلك، إنه أحد هؤلاء الطيبين إلى درجة مؤذية.. أصحاب العقول "السي دي" غير القابلة لإعادة البرمجة.. عبيد الانطباعات الأولى والأفكار الأولى.. الذين يقبعون في المنتصف بلا حراك حين ينادى في الجمع أن ينقسموا من يعرف القراءة والكتابة إلى اليمين والذين لايعرفون إلى اليسار هم عماد أي نظام مستبد

يحافظ عليهم.. ويحتفظ دوما بأعداد كافية منهم.

هؤلاء ليسوا أشرارا للدرجة التي تغرينا بقتلهم وفي نفس الوقت لا يمكن إقناعهم أننا لسنا أعداء الوطن وأن أعداء الوطن الحقيقيين

هم هؤلاء الطواويس المدججين بالنظارات الشمسية والغباء والغطرسة الذين يقومون بالدفاع عنهم وحمايتهم.

ملحوظة3: احم.. حضرة الباشا يوصى بشدة عدم قراءة الفقرة السابقة نهائيا.

لكن مهلا!

هل يعني كلامك أنك لا تعدين خطة للاختفاء والهرب؟

لا يا سارة..

أرجوك..

خذي حذرك ولا تستهتري بالأمر كعادتك فلن أحتمل أبدا أن يمسك شيء،

امممم

سأضطر لقطع حديثي الآن نظرا لحلول موعد تغيير مكاني حسب خطتي الأمنية فإلى رسالة قريبة أحدثك فيها عن كيفية إعداد خطة للهرب.

هذا طبعا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السادسة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أصبح أطفال قريتنا ينادونني بـ (عمو) يا سارة.

في المساء عندما نظرت في المرآة، عدا الكرش لم أجد تغيرا يستحق.. لماذا يصر هؤلاء الأشقياء أن يمنحوني سببا جديدا لكراهيتهم.

لكن لا بأس .. لا شيء سيعكر مزاجي اليوم أبدا فقد عرفت طريقي أخيرا يا سارة وعثرت على المهنة التي خلقت من أجلها.. هل تذكرين جارنا سيد الوكيل الذي حكيت لك عنه سابقا؟ جارنا موظف الشهر العقاري القصير ذو الرائحة الكريهة الذي بنى بيتا خرسانيا من طابقين واشترى ثلاثة فدادين دون أن يعطي دروسا خصوصية أو يسافر إلى الخليج. وزوجته الدميمة برميلية الشكل التي لا تريد أن تقتنع أن الحلي الذهبية وأحمر الشفاه غير كافيين لتحويل أنثى كلب البحر إلى امرأة.

الأسبوع الماضي وبعد خروجنا من صلاة الفجر قال لي صديقي عبد الله: لقد أصبحت شريرا يا يحيى.

ولما نظرت له مستفسرا قال: قد أتفهم أنك تصمت ولا تؤمن على دعاء الإمام عندما يدعو لأولي الأمر والحكام لكن كيف أتفهم أن الإمام عندما كان يدعو للمسلمين بالذرية الصالحة كنت أنت تقول: ماعدا سيد الوكيل ماعدا سيد الوكيل.

حاولت أن أشرح له أن الامر ليس له علاقة بنزعة شريرة بل هو على العكس فعل إنساني محض إذا كيف سنتصرف إذا ورث الطفل غباء أمه والغدد العرقية لأبيه.

لكنه لم يفهمني.. في النهاية اضطررت للإبلاغ أنه عضو بخلية إرهابية لعل غباءه يقل قليلا إذا توقف عن مشاهدة المسلسلات العربية في المعتقل.

لقد أصبح العالم مليئا بالأغبياء والأشرار يا سارة..

الشهر الماضي تعاقدنا في قريتنا مع شركة خاصة لجمع القمامة، وزعت الشركة صناديق عملاقة يقوم سكان كل شارع بتجميع قمامتهم فيها وشاءت القرعة أن يوضع صندوق شارعنا بين بيتنا وبيت جارنا القصير ذي الرائحة الكريهة سيد الوكيل.

لكن زوجته الكسول تصر على إلقاء القمامة من شرفة الطابق الثاني فينفجر الكيس البلاستيكي وتتناثر القمامة في الشارع وأمام مدخل البيت.

نبهتها أكثر من مرة أن عليها أن تنزل وتضع الكيس في الصندوق تجنبا للتلوث الذي تحدثه لكنها لم تستجب.

وضعت يدي على أنفي وشكوت لزوجها، لكنه تحدث عن خشونة الركبة واعتذر اعتذارات بلا معنى لم أفهم منها شيئا ثم منحني ابتسامة لزجة أجبرتني على الوقوف تحت الدش لمدة نصف ساعة كاملة ورغم ذلك مازالت الحيزبون تلقي بالقمامة من الشرفة.

اليوم عصرا كانت تستعد لإلقاء القمامة فترددت لما لمحتني قادما من أول الشارع لكنها سرعان ما طوحت ذراعها في الهواء وألقت الكيس بقوة فانفجر أمامي بخطوات قليلة ملوثا الشارع ومدخل البيت تماما، حدجتها بنظرة غاضبة تجاهلتها ودلفت إلى الداخل تاركة باب الشرفة مفتوحًا.

فكرت أن أصعد وألقيها من الشرفة وأخلص العالم من شرورها لكني أحجمت خوفا من تفاقم آلام ظهري إذا حملت هذا البرميل البشري.

وفجأة برقت الفكرة في رأسي، بدلت ملابسي وارتديت القفاز السميك الذي كانت أمي تستخدمه لتنظيف السمك قبل نبدأ في شراءئه جاهزا بلامذاق من المطعم الجديد على مدخل القرية وأخذت كيسا من أكياس القمامة الفارغة من المطبخ وخرجت.. بدأت في جمع القمامة المتناثرة بهدوء ودقة.

رأتني الحيزبون التي كانت تنشر بعض الغسيل فنظرت مستغربة ثم رفعت كتفيها ومطت شفتها السفلى بلامبالاة قبل أن تدخل وتحكم إغلاق باب الشرفة.

بعد أن انتهيت من جمع القمامة مددت يدي من بين القضبان الحديدية وفتحت البوابة التي تغلق مدخل بيت سيد الوكيل ثم صعدت للطابق الثاني وضغطت على جرس الباب بثقة، فتحت الحيزبون ففوجئت بي وبالكيس في يدي، دفعتها بمرفقي الأيمن ودخلت بهدوء دون أن أتكلم، فوجئ بي الرجل الذي كان يجلس بملابسه الداخلية على أريكة في مواجهة التلفزيون ويلتهم صحنا من البطيخ فسألني باستغراب: خير يا أستاذ يحيى؟ وإيه الكيس اللي في إيدك ده؟ اتفضل!

تجاهلته تماما وخطوت عدة خطوات حتى أصبحت في منتصف الصالة ثم بدأت في إفراغ محتويات كيس القمامة وأنا أدور حول نفسي كراقص باليه محترف. تأكدت أن الكيس أصبح فارغا ثم قذفته في وجهه فاصطدم به وسقط في صحن البطيخ ثم توجهت عائدا إلى الباب وتركتهم يمررون نظراتهم الذاهلة بين القمامة المنثورة الأرض وبيني وملامح الصدمة بادية على وجوههم قبل أن أخرج استندت بمرفقي الأيمن على حلق الباب واستدرت لهما ثم قلت بحسم: المرة دي زبالتكو بس.. المرة الجاية زبالة الشارع كله.. ثم أضفت.. ناس وسخة. وصفعت الباب خلفي بقوة

وتركتهم غير مصدقين،كان جسدي يهتز من فرط الإثارة والحماس وأنا أنزل درجات السلم، توجهت إلى غرفتي واستلقيت على ظهري محدقا بالسقف وأنا أشعر بسعادة غامرة.

لم أكن أعرف أن الانتقام لذيذ إلى هذا الحد.. كنت أشعر بنشوة أشبه بنشوة هانيبال،لكتر وهو يأكل مخ ضحيته في الدور العبقري الذي أداه العظيم "انتوني هوبكنز" الذي تنطقين اسمه "هوبنكز" في فيلم صمت الحملان.

سارة لقد اتخذت قراري..

سأصبح قاتلا متسلسلا.

أرجوك تخلي عن النظرة السطحية وانظري إلى العالم من حولك.. هل هناك مهنة تليق بهذا العالم أكثر من مهنة القاتل المتسلسل؟

هل هناك مهنة تخدم الإنسانية وتتطلب الدقة والتفاني بقدر القاتل المتسلسل؟

على أية حال لا تجزعي، فأنا لن أطارد المراهقات الحسناوات كما في الأفلام الساذجة. لكن زبائني سأنتقيهم بعناية من بين الأشرار الذين يملؤون العالم.. الأطفال الذين لا يكفون عن البكاء والصراخ بلا انقطاع في المواصلات، الأشخاص الذين يلتقطون صور بطاقات الرقم القومي، سائقو الميكروباص، المديرون (جميع

المديرين)، الأشخاص الذين سجلوا إعجابا بقناة الخليل كوميدي على اليوتيوب، الشخص الذي أقنع أحمد آدم أن يقدم برنامجا كوميديا، هذه مجرد قائمة مبدئية وبالتأكيد سأنتظر اقتراحاتك القيمة لأضيفها إليها وسأوافيك بآخر الأخبار في الرسائل القادمة.

هذا طبعا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السابعة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

اشتقت إليك يا سارة.. اشتقت حد الألم

على نحو ما فإن استمرار حياتي يرتبط بوجودك فيها تماما كما أن استمرار أي نظام مستبد يرتبط بوجود جماعة دينية غبية وإعلام فاسد وكثير من المواطنين الشرفاء الذين يحسنون الرقص أمام اللجان الانتخابية ويجيدون تقبيل البوسترات ولعق الأحذية. نعم.. ما تفكري فيه صحيح وحقيقي مازالت السياسية وحال الوطن الذي لم يعد يحاول إدعاء أنه كذلك، يشغلني ويحزنني برغم محاولتي المتكررة للتظاهر بعكس ذلك.

قتلتني الثورة يا سارة.. ذبحتني من الوريد إلى الوريد.. لست وحدي بالمناسبة، تلك الثورة سحقت هذا الجيل.. تمامًا.

أتدرين ما أسوأ ما يمكن أن يحدث لمن يهوي من سماوات الحلم فتدق عنقه على أرض الواقع؟

إن أسوأ ما يمكن أن يحدث له هو ألا يموت! أن تتفت عظامه ولحمه ويظل هكذا.. مجرد بقايا تراقب روحها وهي تذوي وتذبل ببطء وقسوة.

السؤال الذي يكوي الحشا يا سارة هو من أجل ماذا ضحى الشهداء؟ وكيف سنشرح لهم ماحدث؟

كيف سنفسر لزياد بكير وسالي زهران وكريم بنونة وعماد عفت وعلاء عبد الهادي أنهم ماتوا من أجل أن نصبح هكذا!

من أجل أن يحكمنا هذا الخليط السخيف من هاني شاكر والقذافي؟!

ما الخطيئة التي ارتكبناها؟ هل استعجلنا؟ ألم تكن ثلاثون سنة كافية؟ هل بالغنا فيما طلبنا؟

أجيبيني يا سارة.. أنت تعرفينني جيدًا.. هل بالغت؟

كل ما كنت أرجوه هو نظام يُلزم مدام تحية موظفة شيءون الطلبة أن ترد عليّ بأي رد.. أي رد حتى لو كانت ستسبني.

نصف ساعة ياسارة وأنا واقف أمام الشباك أناديها ولا تجيب ولا تلتفت، لو حامت حولها ذبابة للفتت انتباها ولحاولت أن تهشها بعيدا عنها، أما أنا فلم أصل لمستوى الذبابة في نظر مدام تحية.

شعرت أنني (لا شيء)

أنت لا تعلمين كم هو مهين أن يشعر المرء أنه (لا شيء) يا سارة.

لم أكن قد تعلمت السباب وقتها وإلا لكنت عرفت كيف أجبرها على الرد.

ماذا كنت أرجو أيضًا؟

كنت أرجو ألا يكون من حق أمين الشرطة أن يطردني وانا أستفسر عن بطاقتي الانتخابية.

أخبرني أن علي الذهاب لقسم ثان. فطلبت منه بمنتهى الأدب أن يتأكد من دفاتره لأنهم أخبروني في قسم ثان أن بطاقتي هنا. طردني.. قال لي بمنتهى الصراحة: يلا ياض غور من قدامي ما تقرفنيش.
قالها.. فمشيت يا سارة.. مشيت.

لكن المهين أكثر من ذلك هو رد فعل صديقي الذي حكيت له عن الموقف فقال لي بعفوية ورضا حقيقي: الحمد لله أنها جت على قد كده وكويس أنك ما رديتش عليه!

ألهذا الحد نحن ضعفاء يا سارة.. بؤساء؟!

كنت أرجو أيضًا أن أعرف لماذا تم استبعادي من وظيفة مراقب جوي بمطار القاهرة بعد أن اجتزت جميع الاختبارات. وبعد أن أجبت على سؤال سعادة اللواء في اختبار الهيئة (ما معنى اختبار الهيئة أساسًا؟!)

سألني: تعرف تقول ستي بسبستلي بسبوسة بالسمنة والسكر؟
فقلت: ستي بسبستلي بسبوسة بالسمنة والسكر.

سألني: هل أنت ألدغ في الـ (س)؟

فقلت له: لا.

أريد أن أعرف كيف يمكن أن تكون الإجابة على مثل هذا السؤال دافعًا لرفضي أو حتى لقبولي؟

هل أخطأت في الإجابة الأخيرة مثلًا؟!

هل كان يجب أن أقول له: اللي تشوفه يا أفندم.

هل المشكلة في (البسبوسة)؟

كنت أنوي أيضًا إذا ما نجحت الثورة أن أذهب إلى وزارة الخارجية وأسأل عن الشخص الذي كتب عبارة (غير لائق اجتماعيًا) أمام اسم عبدالحميد شتا في كشف الوظائف. وكنت سأصحبه إلى كوبري أكتوبر، ثم أحضر حبلًا أربط طرفه في حاجز الكوبري وأربط الطرف الآخر في رقبته، ثم ألقيه من نفس المكان الذي انتحر فيه عبد الحميد، وأتركه هكذا معلقًا تأكل الطير من رأسه.

هذا كل ما كنت أرجوه يا سارة.

فهل هذا كثير أو مبالغ فيه؟

هل هذا كثير يا حضرة الباشا الضابط؟

هل الكرامة والعدل كثير علينا؟......

أعتذر إن كنت قد سببت لك ألما يا سارة.

لم يكن هذا في خطتي أبدًا وأنا أبدأ هذه الرسالة.

لكنني تعبت من إدعاء التماسك والقوة. وليس لي سواك كي أبكي بين يديه وأنتحب. وأعدك أن أعوضك عن هذا الألم في الرسالة القادمة.

هذا طبعًا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثامنة

عزيزتي سارة ..

مساؤك سكر..

كما ينبغي لمساء تكونين فيه.

لا داعي لقلقك.. على الأقل خلال الفترة القريبة القادمة فقد أقنعتني (أمينة) بتأجيل موضوع القتل المتسلسل قليلًا كي أتدرب وأستعد له كما يليق بقداسة المهنة واحترامها.

أمينة عمرها ثلاث عشرة سنة تسكن مع أمها الأرملة وثلاث أخوة أصغر منها في عشة على أطراف قريتنا من ناحية ضريح الشيخ حسونة، الذي لا يعرف أهل القرية أي شيء عنه لكنهم يجمعون أنه كان (راجل بركة) وإلا فلماذا تم عمل ضريح له؟ لا يحلو لأمي أن تنادي أمينة التي تأتي كل صباح لمساعدتها في شيءون المنزل إلا بـ (يا مزغودة)، والحق أني أوافقها تمامًا على هذا اللقب الذي منحته لتلك الفتاة النحيفة دائمة الشحوب التي تمتلك نظرات حادة ولسان سليط كأي زوجة أب مثالية. هذا الصباح كنت في غرفتي أقرأ رواية (العطر) لباتريك زوسكيند كنوع من الاستعداد للمهنة الجديدة، لكنني فجأة انتبهت على صوت أمي وهي تصرخ: فار يا يحيي فار.. فار.

قمت مفزوعًا وسحبت الشرشف والوسادة الصغيرة من فوق السرير، ثم أسرعت ناحية الباب فأحكمت إغلاق الفراغ تحت عقبه ثم وقفت فوق الكمود أستمع لهتافات أمي والمزغودة الصغيرة أثناء مطاردتهم للفأر اللعين.

لا ياسارة ليس الأمر كما يبدو.. لم أتخل عن أمي وأتركها لتواجه مصيرها مع الفأر وحدها، هي بالأساس لم تكن تستغيث بي بل كانت تحذرني خوفًا من أن يدخل الفأر على الغرفة، فهي تعرف أنني لا أفضل أن أختلي بفأر وحدنا في مكان مغلق. بعد دقيقتين تقريبًا طرقت المزغودة الصغيرة باب غرفتي وقالت بلهجة ساخرة: خلاص يا أستاذ يحيي أنا مسكت الفار لو عايز تطلع.

الملعونة..

خرجت فوجدتها واقفة في الصالة والفأر في يدها اليمنى فصرخت فيها بعنجهية غير مبررة: أنت واقفة عندك بتهببي إيه؟ روحي شوفي شغلك.

ردت بابتسامة صفراء وهي ترفع الفأر أمام وجهها مهددة:

حاضر.

ثم رمقتني بنظرة ساخرة ترجمتها إلى التالي: ياللك من برجوازي متعفن.. أنت كأقرانك من أبناء الطبقة المتوسطة لا تجيدون سوى

الكلام والتشدق بالشعارات الفارغة.. والأدهى أنك تريد أن تصبح قاتلًا متسلسلًا.. بلا نيلة.

أقنعتني تلك النظرة بتأجيل مشروع القتل المتسلسل قليلًا رغم أنني مازلت مقتنعًا بوجاهة الفكرة وصحتها.

سارة!

هل أنا جبان؟

هل أبدو جبانًا ياحضرة الضابط؟ ألا تثبت رسائلي التي تراقبها أنني شجاع وجرئ، بل متهور؟؟

معذرةً يا سارة لقد أربكتي نظرة تلك الملعونة الصغيرة فسامحيني سأنهي الرسالة الآن. وإلى لقاء في رسالة قادمة..

هذا طبعًا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة التاسعة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

اممممواه

مادمت تصرين على أن أعبر عن حبي فلا شيء أفضل من (قبلة).

سنكتفي أن تكون على جبينك لاعتبارات عديدة أهمها وجود حضرة الباشا الضابط المتطفل بيننا. تمامًا كالمترجم الذي كان مع علاء ولي الدين عندما قرر الانحراف في فيلم الناظر.

على ذكر الانحراف هل تتفقين معي أن الحب انحراف؟

الحب بكونه شعورًا خارقًا مبهجًا يعد انحرافًا عن مسار الحياة التقليدي الرتيب المتخم بالأشياء العادية حد الملل. لعل هذا هو السبب في ندرة تعبيري لك عن حبي بكلمات حب عادية مباشرة ككلمات الاغاني.. كلمة "أحبك" كل رجل يستطيع أن يقولها. حتى حضرة الباشا الضابط الذي لا يجيد سوى الغطرسة واعتقال الاشخاص الخطأ والتلصص علينا. لكن ليس كل رجل يستطيع أن ينظر إليك كما أنظر إليك. ليس كل رجل يستطيع أن يدس إليك الحب في تحيات الصباح والحكايات القديمة وبين سطور رسائله كما أفعل.

إن كل أنفاسي ولفتاتي وضحكي وبكائي وغضبي وفرحي وكلمات رسائلي لك هي مجرد كلمة (أحبك) متخفية ومتنكرة في حروف وأشكال مختلفة. غاية ما في الأمر أنني أخجل أن أغازلك بكلمات قيلت لسواك؛ الكلمات التي تُقال لك ينبغي أن تكون مثلك.. طازجة وشهية.

أتدرين ما الحب ياسارة؟

الحب هو أن تنعقد تفاصيل الحياة بناصية المحبوب فالنوم يصيح.. "الوقت الذي أحلمُ فيه بك" والبهجة تصبح.. "ابتسامتك" وحتى الأرض نفسها تمسي "الكوكب الذي تسكنيه"

الحب هو أن يعاد تسمية الأشياء بمدى رضاك عنها فاللون الأحمر يصبح.. "اللون الذي تحبينه" وعصير الأفوكادو بالمانجو يصبح.. "مشروبك المفضل".

الحب هو أنك حين تبتعدين يصبح الزمن ثقيلا كساعات الانتظار، مملا كخطاب رئيس مستبد.. سخيفًا كالأشخاص الذين يأخذون الدنيا على محمل الجد.. الحب هو أنه في أي ساعة من النهار إذا مسك حزن تستحيل الدنيا ظلامًا دامسًا.. لذا أقسمتُ عليك برب تلك العيون الساحرة ألا تحزني، حزنك يؤذي العا لم.

كل الأشجار اليابسة في هذا العالم رجالٌ نظرتي إليهم بحزن، فلا تحزني رفقًا بالحياة وبي.

الحب يا سارة هو أن يبدو كل العالم عداك.. بلا أهمية سارة..

تري أمازلت تذكرين لحظة ميلادنا؟

كنا في مكتبة الجامعة.. فجأة انسدلت على الكون ستارة حريرية وخلت الدنيا سوى من كلينا.. اقتربت منك بحذر.. أمسكت كفك الرقيق.. نظرت في عينيك الفيروزيتين الصافيتين كبحر يحتضن جميع الألوان وهمست بصوت مرتجف "أحبك"

وقتها رفعت حاجبيك دائمي الدهشة واكتست وجنتك الملساء بحمرة خجول كميلاد صبح جديد، وابتسمت ابتسامة جعلت الزمان فجرًا أبديًا لا ينتهي، فانفرجت شفتاك المكتنزتان كاشفة بدلال عن أسنانك المتناسقة البيضاء كذرات ثلج تساقطت توًا من السماء.. فرفعت كفك الأخرى تدارينها وتدارين أنفك الدقيق المنمق الذي يتكئ بكبرياء أميرة رومانية أعلى ثغرك الشهي. ولم تجيبي.. فما كان مني إلا أن وضعت يدي على قلبي وقلت لك راجيًا: رحماك.. توقفي.. أكادُ من فرط الجمال أذوبُ.. ولم تتوقفي.

فقلت لك: كيف تفعلين هذا؟ كيف تكونين دومًا بهذه الرقة وهذا البهاء؟

فأجبت: لا أفعل إلا ما يتحتم عليّ فعله.. أُحبُك.

عندها سقطت كالمغشي عليه من الحب.. فضحكت ضحكتك الصافية كعزف أرغول لعوب، وخرجت من فمك جنيات من الهليوم دغدغت روحي وقلبي وحملتني على أجنحتها الشفافة إلى البيت فلم انتبه إلا على صوت أمي وهي تقول لي: صفها.

قلت: لا أستطيع.

قالت: حاول.. من أجلي.

فقلت: لها عينان هما الغواية.. أينما نظرتا أشرق نور، ولها ابتسامة هي البهجة.. كل من يراها ينبت له جناحان، ولها حضور كشروق لا غروب بعده.. أينما حل فثمة ضحية، ولها قلبٌ رقيق دافئ كمناجاة صوفية لا تمس شيئا إلا وقع في الحب.

مشاغبةٌ كقط يطارد عصفورا وليدا.. بهيةٌ كزهرة تفتحت للتو.. رقيقةٌ كفراشة تحمل على جناحيها قوس قزح.....

فهل تراني وفقت في وصفك؟

بالطبع لا..

ثم تأتين أنت وتطلبين مني أن أغازلك! كيف؟....

سارة أنا في ورطة كبيرة وأريد مساعدتك.

إن صديقي الكندي الذي حدثتك قد أعلن إسلامه قبل شهرين.

أما كيف يعتبر هذا الأمر ورطة؟ فسأحكي لك ذلك بالتفصيل في الرسالة القادمة لأني اشعر الآن بإنهاك شديد.

هذا طبعًا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة العاشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

للغاية.. جدا.. أكثر من أي مساء آخر.

آه قبل أن أنسى.. في لقائنا القادم سأرتدي قميصًا أبيض اللون ماركة (ليي) الأمريكية فلا تظني بي سوءًا، أنا لم أتخل بعد عن احتقاري للشركات الكبرى والماركات العالمية و مظاهر ما بعد الحداثة، ومازال بإمكانك أن تفخري بأني لم أرسل رسالة تهنئة أو معايدة جاهزة في حياتي كما أني ما زلت أحتفظ برجولتي وأقول على التليفون "تليفون" وليس "فون" كابن عمتك اللزج الذي نسيت أن أضعه على قائمة القتل المتسلسل (سارة! ما معنى هزة الرأس تلك وهذه الابتسامة التي علت ملامحك بعدما قرأت "القتل المتسلسل".. أنا أرفض هذا التلميح).

الحكاية وما فيها أن صديقي إبراهيم الذي استثنيته مؤقتًا من قاعدة أن "كل الأثرياء أوغاد بالضرورة" قد اشترى مجموعة متنوعة من الملابس من موقع أمازون الشهير، لكنه وجد أن هذا القميص صغيرًا عليه فعرض عليّ شراءه. في البداية ترددت لكن فكرة أن إبراهيم يمتلك كرشًا أكبر من كرشي استهوتني وأردت توكيدها فاشتريته، واشترطت أن أدفع ثمنه بالتقسيط المريح. المشكلة أن

مصمم الازياء الوغد لم يضع اللوجو الشهير للماركة في مكان واضح كما هو المعتاد مما سيعوق إمكانية التباهي به أمام زميلاتي في العمل.

لا أدري.. أفكر أن أتحجج بأي حجة واهية كي أحكي لهن حكاية شرائي للقميص، ثم أستغل الفرصة وأؤكد لهن بطريقة لامبالية (لابد أن تكون لامبالية) إنه ماركة "ليي" العالمية، كما أنني سأبالغ قليلًا وأخبرهم أن سعره أكثر من مائتي دولار لأستمتع بنظرات الانبهار في أعينهن (لا تغاري أرجوك أنها الغريزة لا أكثر).

لكن دعيني قبل أن يداهمنا الوقت أحكي لك عن الورطة التي تحدثت عنها في الرسالة السابقة فلابد أن الباشا الضابط يتحرق شوقًا لمعرفتها.

أتذكرين "تريستان هدسون" صديقي الكندي الذي يدرس العربية ويحبها، ذلك الذي أخبرتك عن اختفائه المفاجئ منذ شهرين أتذكرينه؟

لقد ظهر قبل يومين وأثلج صدري بخبر إعلان إسلامه، وقال أنه سمى نفسه "عبد الله" ثم أضاف مفسرًا: أردت أن ينادي الناس باسم "عبد الله" حتى يذكروني دائمًا بتلك الحقيقة الأولية (أني عبد الله) لتظل واجباتي ومسؤلياتي تجاه "الله" ماثلة أمامي فينضبط سلوكي.

نعم بالفعل! شعرتُ بنفس ما تشعرين به الآن بالضبط.

تخيلي أنني لم أفكر في أن أسأله عن سبب اختيار الاسم من الأساس ناهيك أن تخطر ببالي تلك الإجابة العبقرية.

إننا نتعامل مع واقعنا وحياتنا يا سارة باعتياد أكثر من اللازم ولا شيء يثير شهيتنا للسؤال والبحث.

نتعامل مع الدنيا بمبدأ (هذا ما وجدنا عليه آبائنا) وطبعا أصحاب اللحوم المسمومة والأفكار المتيبسة يباركون هذا الوضع ويشجعونه.

أول من خطر ببالي وأنا أسمع كلام "عبد الله" الكندي هو "عبد الله" المصري.. لقد خرج من المعتقل صباح اليوم، لا أدري هل اكتشفوا أنه أكثر تفاهة وغباءً من أن يكون إرهابيًا، أم أن صديقنا الباشا أبلغهم بالحقيقة؟

ترى هل يخطر ببال "عبد الله" عندما يناديه الناس أيًّا من المعاني التي خطرت في بال "عبد الله" عندما قرر أن يسمي نفسه "عبد الله" (ليس الأمر بهذه الصعوبة يا حضرة الباشا الضابط اقرأها مرة ثانية ببطء وستفهم)

لقد أثارتني الطريقة التي ينظر بها عبد الله للإسلام والحياة يا سارة وأفكر أن أحذو حذوه.

(لا يا حضرة الباشا الضابط لا أفكر بالإلحاد ثم العودة لا تكن بهذه السذاجة)

دعك منه يا سارة وركزي معي

ما أفكر به يمكن تسميته بـ (فن تفخيخ المعتقدات) أن أعيد طرح أسئلة الصغار التي تنسف معتقدات الآباء.. تلك الأسئلة التي تحرم بالتقدم في العمر من عينة: ماذا نحن؟ وماذا نفعل هنا؟ وماذا بعد؟

أفكر في نبشها وإعادة طرحها من جديد.. أضع قبل كل فكرة أو رؤية كلمات مثل كيف؟ وأين ؟ ولماذا؟ وهل؟

ونحاول أن نجد بعض الإجابات المرضية.. لاحظي أن سيدنا إبراهيم عندما قال لرب العالمين "ربّ أَرني كيفَ تُحيي الموتى" فإن الله لم ينهاه أو ينهره، بل أراه.. إن الله لا يحرّم علينا السؤال كما لقنونا يا سارة، لكنه فقط يقول لنا: إن كل ما علينا هو أن نسأل السؤال الصحيح وبطريقة صحيحة، وهذا وحده كفيل أن يمنحنا نصف الإجابة.

علي أية حال ليس هذا ما كنت أقصده بالـ(ورطة). الورطة الحقيقية أن تريستان أو عبد الله قرر أن يرتد عن الإسلام بعد عشرة أيام مضى منهم يومان بالفعل، ولا أدري ما ذا أفعل لكي أُثنيه عن هذا القرار.. لكن دعي التفاصيل للرسالة القادمة..

هذا طبعًا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها..

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الحادية عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر كالمعتاد..

في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر قطع الخضر أن موسى لن يستطيع معه صبرًا ثم تساءل مستنكرًا: و"كيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا"

الغريب أن موسى رغم تحذير الخضر له لم يقو على كبح جماح فضوله وكان يسأله في كل مرة حتى بعد أن قال له إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، رغم أنه قطع كل هذه المسافة ليتعلم منه.

والأغرب أن الخضر لم يعلمه أي شيء في هذه الرحلة إلا بعد ان سأله موسى عنه لكنه برغم ذلك فارقه بعد أن أجابه على السؤال الثالث وقال له: هذا فراقٌ بيني وبينك.

فهل هذا إشارة إلى أن هناك مرحلة ما يجب على المرء بعدها أن يجد إجاباته بنفسه ؟

ربما..

(لا تنشغل بالبحث عن مناسبة لهذا الكلام يا حضرة الباشا

الضابط فقد تعودت مع سارة أن أقول كل ما يخطر ببالي وأترك لها مهمة تنسيقه وترتيبه)

نعود لمسألة تريستان أو عبد الله فلابد أنكما تتحرقان شوقًا للتفاصيل..

شوفي يا سارة

هو لم يقرر الردة صراحة لكن ما أقصده أنه يريد أن يزور مصر بلد الأزهر (حسب قوله) ليتعلم فيها الإسلام على أصوله. حاولت إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة المتهورة أو تأجيلها على الأقل حتى يتمكن الإسلام من قلبه.. وبالغت في محاولاتي لدرجة أنه تخيل أننى أخشى من الأعباء المالية لزيارته فطمأنني أنه سيتحمل كافة التكاليف. ولم أستطع أن أشرح له أن المشكلة المادية هي أهون المشكلات التي ستواجهنا، فاضطررت أن أطلب منه مهلة لترتيب الأمر. ومن وقتها وأنا أفكر في هذه الزيارة ونتائجها المتوقعة. وقد توصلت لأفكار كثيرة للحد من احتكاكه بالمجتمع المصري المتدين بطبعه قدر المستطاع أو على الأقل اختيار الفئات المناسبة للتعامل معها، كما سأخبره أن الأزهر في اجازة طويلة ستنتهي بعد زيارته مباشرة، وبالطبع لن أدعه يزور أي مدينة من المدن الكبرى، أو يذهب لمصلحة حكومية، أو يركب مواصلات عامة، أو يشاهد التلفزيون. باختصار سأحاول أن أجعل هذه الزيارة كأن لم تكن. لكن المعضلة التي لم أجد لها حلًا

حتى الآن.. هي كيف سأقنعه ألا يحضر خطبة صلاة الجمعة عيد المسلمين ويومهم المبارك؟؟

فكرت أن أطلب من الباشا أن يمنعه من دخول مصر، لكن خفت من أن يذهب لأي دولة عربية أخرى دون أن أكون معه.

احترت.. أرجوك ياسارة أن تساعديني في هذه المعضلة بأي فكرة من خارج الصندوق، أو من داخله، أو من أي مكان. المهم أن نساعده في الحفاظ على دينه. سأتركك الآن لتفكري في الحل وإلى لقاء في رسالة قادمة.

هذا طبعًا إذا سمح لنا الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها..

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثانية عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أنت حبيبيتي يا سارة.. حبيبتي الجميلة العبقرية. كيف خطر ببالك هذا الحل المذهل؟

يا بنت الإيه.. صحيح أن الأمر سيكلفني دعوة على العشاء مليئة باللحم الضأن والكثير من الفتة لإقناع الشيخ ثروت إمام المسجد لكن لا بأس المهم أننا سنحافظ على عبد الله من خطر الردة وهو خير لنا من حمر النعم كما تعلمين.

كنت أجلس تحت يدي نبيل الحلاق حين وصلتني رسالتك على الهاتف قبل أن أتشاجر معه وأغادر المحل بعدة دقائق.

الغبي جذبني من أنفي ليعدل زاوية رأسي في وضع مناسب له، لا أحب أن يذكرني أي شيء أن أنفي كبير وبارز وقد حذرته مرارًا من هذه الحركة، وأخبرته أن عليه أن يشير إليّ بالزاوية التي يريدها وأنا سأضبطها ، لكنه كان شاردًا يراقب "صباح البنهاوي" الفتاة اللعوب ذات التضاريس البارزة التي كانت تتشاجر مع سائق التكتوك.

السائق يصر على الحصول على جنيه إضافي على الجنيهين اللذين حصل عليهما بينما تصر هي ألا تعطيه شيئًا، ولما ضاقت بإلحاحه صرخت فيه بلهجة سوقية تعودت عليها: أستاذة! أستاذة مين يا حيلتها شايفني واخدة كشكولين في حضني ولا عاملة ضفاير.. هما اتنين جنيه اللي معايا.. ولا عايز تاخد فيزا؟ الوقحة!

عندما سمع سائق التكتوك الجملة الأخيرة أصدر صوتًا اعتراضيًا من أنفه وسبها بسبة تتعلق بشرف السيدة نحمده والدتها. فما كان من صباح إلا فتحت في وجهة بالوعة من الشتائم المنتقاة ثم خلعت شبشبها الأحمر ذو الكعب العالي وهجمت عليه. لكن كل هذا لا يمنح الغبي المسمى نبيل حق أن يمسكني من أنفي.

كله إلا أنفي.. عندما أمسكني منها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أدفعه من كتفه بعنف فتراجع خطوتين إلى الوراء مفزوعًا ثم انتفضت من على الكرسي وصحت فيه: "تصدق أنك حلاق غبي وما بتفهمش والله ما أنا مكمل حلاقة ولا داخل محلك ده تاني.." وخرجت من المحل غاضبًا.

تفاديت الجمع الكبير الذي يحاول فض المشاجرة وقد التفوا جميعهم حول التكتوك و صباح يحاولون تهدئتها ويستثمرون وجودهم في الإمساك بما تطوله أيديهم منها مدعين محاولة منعها

من التهور بينما السائق المسكين كان يقف على الجهة الأخرى وحيدًا وغاضبًا ولما لم يجد من يحاول تهدئته هدأ من تلقاء نفسه! بعدما تجاوزتهم سمعت صوت نبيل يأتيني عبر الضوضاء: أستاذ يحيي.. أستاذ يحيي.

التفت ناحيته فأشار إلى رقبته وصدره قائلًا: الفوطة.

لمحت بعض الصبية الأشرار الذين تجمعوا حول المشاجرة يشيرون إليّ ويتغامزون، فاستشطت غضبًا وانتزعت الفوطة بغيظ صارخًا فيه: "والله ما أنا مديهالك.. هولّع فيها" ثم استدرت عائدًا إلي البيت.

لقد أصبحت محاصرًا بالأغبياء والأشرار ياسارة.

حضرة الباشا الظابط! أرجوك! كف عن التفكير في صباح اللعوب ذات التضاريس البارزة وانتبه لما أقول، فقد أحتاجك لتقنع الشيخ ثروت بطريقتك الخاصة إذا لم يقتنع بدعوة العشاء، ولعلها فرصة مواتية للإسهام في تجديد الخطاب الديني حسب توجهيات السيد الرئيس.

لقد أخبرت عبد الله بفكرتك ياسارة.

في البداية تردد كثيرًا ورفض الأمر برمته قائلًا: لا يا يحيي.. لا أستطيع.. كيف أخطب الجمعة في وسط جمع غفير من المسلمين في أرض الإسلام بلد الأزهر.. كيف سأقنعهم؟

أجبته بعصبية: هذا هو الحل الوحيد.

فسأل مستغربًا: الحل؟ الحل لماذا؟

فأجبت بنفاد صبر: لا عليك.. أقصد لا تقلق إطلاقًا الأمر في غاية البساطة أنت تتحدث العربية بطلاقة وتجربتك تجربة ملهمة فقط أسردها على الحضور.

في النهاية وبعد جهد جهيد اقتنع وتحمس للفكرة جدًا وشكرني على ثقتي، ولما أخبرته أنه اقتراحك أنت للتعبير عن الترحيب به طلب مني أن أبلغك تحياته وامتنانه.

بعدما أنهيت الاتصال ضحكت طويلًا على كلامه وهو يقول: أخشى ألا أقنعهم.

ذلك المتفائل الأحمق لا يدرك أن أهل بلدتنا على استعداد تام للاقتناع بأي شخص طالما أنه يقف على المنبر ويتفوه بكلمات فصحى لا يفهم معظمها. كما أنهم على أتم الاستعداد أيضًا للانبهار بأي شيء يأتي من شمال المتوسط وغرب الاطلسي فكيف إذا اجتمعت الميزتين في شخص واحد.

فكرت أن أرسل له رسالة أقول له فيها أننا ليس بيننا طفل "أندرسن" ولذلك فإن ملكنا يتجول ليل نهار متجردًا من أي لباس ولا يجرؤ أحد أن يخبره أن مؤخرته عارية إلا في الجلسات الخاصة

والرسائل الغرامية. لكني تراجعت خشية أن أصدمه في بلد الأزهر ومهد الإسلام.

سارة!

لقد تلقيت طردًا غريبًا من مجهول اليوم وعندما فتحته وجدت بداخله كتابًا، لكن المكتوب على الطرد من الخارج أغضبني كثيرًا وأشعرني بالإهانة ولا أدري هل يقصد ما فهمته أم أنها مجرد مصادفة.
على أي حال سأحكي لك التفاصيل في الرسالة القادمة. هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها..

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثالثة عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

(يصل ليد أ/ يحي السعيد "كلب ينبح ليقتل الوقت")

هذا نص العبارة المكتوبة على الطرد من الخارج. صحيح أنني عندما فتحت الظرف وجدت بداخله طبعه أنيقة من ديوان عماد أبو صالح الذي يحمل نفس الاسم (كلب ينبح ليقتل الوقت) لكن هذا لا يمنع أن الوقح الذي كتب العبارة بهذه الطريقة يقصد شيئًا أكبر من توضيح محتوى الطرد.

أنا لم أخبر غيرك أنني في كل مرة أقرأ الديوان أشعر أن الكلام موجه لي أنا بالذات.

أقرأ: كلب ينبح ليقتل الوقت ثم أهمس: الله يسامحك

هل أفشيت سري يا سارة؟

وحدها التجربة تكشف زيفنا، كثيرًا ماتشدقت بأني أرى أن الحيوان أفضل وأرقى من الإنسان لأنه على الأقل لا يعرف الغل ولا الجشع ولا الكراهية، ولأنه لا يقتل بني جنسه إلا إذا أصاب مخه عطب أو تلف، بينما البشر يلوكون لحم بعضهم كنوع من تزجية الفراغ. لكنني ما أن تصورت أن المرسل المجهول يقصدني بعبارته

حتى شعرت بالإهانة والغضب. هل في الأمر إهانة؟ ألا نقضي حياتنا ولسنا أكثر من مجرد "كلب ينبح ليقتل الوقت" (عداك طبعًا).

حضرة الباشا الضابط يقتل الوقت بمراقبتنا

وأمي تقتل الوقت بالنميمة مع جاراتها

وأنا أقتل الوقت بالحديث معك وعنك بالاحتراق شوقًا.. بالذوبان حبًا..

والغريبة أنه برغم كل هذه المحاولات لقتله فإن الوقت لا يموت

لا يموت يا سارة بل يزداد قسوة وتمنعًا واستعلاءً ويذرنا صرعي انتظار شيء ما لا نعرفه ولا يأتي!

ترى من الوقح الذي أرسل هذا الطرد ياسارة ؟

أستبعد أن تكون أنت يا حضرة الباشا الضابط فأنتم لا تلجأون للتلميح، ولا أظنك تقرأ أيضًا والا لما كنت في هذا الموقع الحساس تمارس تطفلك وإزعاجك لنا بهذا الدأب العجيب. وحتى إذا كنت تقرأ فبالتأكيد لن يكون أبدًا عماد أبو صالح. تفهميني طبعا ياسارة!

من إذن؟

آآه..

لاشك أنه عبد الله فقد قسوت عليه في المرة الأخيرة لكنه يستحق حتى أني أوشكت أن أضربه هذا الغبي تصوري أنه كان يريدني أن أكتب له رسالة غرامية!

(لا يا حضرة الضابط ليست له شخصيًا أقصد رسالة ليرسلها لحبيبته)

ليست المشكلة في الرسالة بالطبع المشكلة أن حبيبته تلك هي صباح.. صباح البنهاوي ذات التضاريس البارزة.

(تذكرها طبعًا يا حضرة الضابط)

قلت له: صباح لا يليق بها الرسائل يمكنك أن تهديها صورة إباحية وتكتب لها عليها عبارة بذيئة.

فغضب وقال: لا أسمح لك أن تتحدث عن زوجتي المستقبلية هكذا.

يا الله! أنا محاصر بالغباء في كل مكان.

هتفت فيه: زوجتك؟!!

ثم أخبرته أنها مريضة.. مصابة بالمازوخية وتتلذذ بتعذيب نفسها، فلما نظر غير مصدق، شرحت له أنني لاحظت عليها بعض الأعراض الطفيفة لكنني تأكدت من مرضها حين حكت لي البنت أمينة المزغودة أنها تجلس في غرفتها تحدق في الحائط المقابل

لسريرها لفترات طويلة، وأن أمينة عندما دخلت عليها خلسة وجدتها تحدق في بوستر كبير لممثل تافه ثقيل الظل معلق على الحائط مما يدل أنها في حالة متأخرة من المرض.

سألته أيضًا كيف يقبل أن يصاهر تاجر مخدرات؟

فأبدى استغرابه وطلب مني أن أكف عن إطلاق الشائعات على الرجل المحترم تاجر الحبوب.

فاستنكرت موقفه المدافع وقلت: إن تجارة الحبوب ما هي إلا ستار يداري به نشاطه الحقيقي، وأن رجل مثلك مدمن على المسلسلات العربية والحلبة لا ينبغي أن يفوته مثل هذا الأمر، هل رأيت في حياتك تاجر حبوب اسمه "خميس البنهاوي"؟

لا يمكن أن يكون هذا الاسم إلا لتاجر مخدرات مخضرم وإذا لاحظت أن زوجته اسمها نحمده فستتأكد من كلامي.

لكن لأن الحب أعمى، ولأن عبد الله غبي، ولأني مبتلي به فقد قال بعصبية: إنها تحبني.. ابتسمت لي أكثر من مرة.. وأنا سأتزوجها.. أعلم أن لها بعض النزوات لكنني قادر على تقويمها. بعد أن سمعت هذا العته اضطررت أن أقول له بمنتهى الفجاجة: نزوات!!

إن صباح التي تظنها أحبتك لأنها ابتسمت لك وتريد أن تتزوجها هذه تبتسم لأي ذكر يقابلها حتى ولو كان ذكر ضفدع القصب،

كما أنها لعلمك الخاص قد واعدت كل رجال قريتنا في ضريح الشيخ حسونه ماعدا ثلاثة:

أنت لأنك تنام مبكرًا، وسيد الوكيل بسبب رائحته، وعماد لأنه سافر قبل أن تبرز تضاريسها.

قاطعني قائلًا بغضب: أنت تغار، كنت أعلم أنك شرير وحقود.

ثم انتفض وغادرني وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة. وبعد أن ابتعد قليلًا، توقف. ثم استدار نصف دورة برأسه وقال بامتعاض:

- على فكرة! بما أنك جبت سيرة عماد.. حسن أخوه قالي أنه جاي كمان يومين ولما ييجي هشتكيله منك.

أتذكرين عماد يا سارة؟ صديقي المقرب الذي لم أكن أحتاج أن أسأله عن عدد ملاعق السكر حين أعد له الشاي. ترى أمازال يشربه بملعقتين، أم أن السنوات العشر التي غابها قد فعلت فعلها؟ سنرى.. وبالتأكيد سأحكي لك عن لقائي به لكن دعي ذلك للرسالة القادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الرابعة عشرة

عزيزتي سارة..

أرجو من كل قلبي أن تكوني بخير عندما تصلك هذه الرسالة، وبعد أن تصلك، وفي كل وقت.

لا يعرف الموت على حقيقته يا سارة إلا الذين وقفوا على حافته..

أسرى الحروب

الناجون من المذابح

الذين فقدوا أحبتهم

الشعراء

والمغتربون.

ذهبت للسلام على عماد اليوم.. عندما جاء الشاي أمسكت السكرية وهممت بوضع ملعقتي السكر في كوبه، لكنه أمسك يدي برفق وقال متحرجًا: أصبحت أشربه بدون سكر.

ثم أطرق إلى الارض، وساد صمتٌ ثقيل.

أين الكلام الذي لم يكن ينقطع طوال جلستنا معًا؟؟

أين الذكريات والضحكات البريئة؟؟

ماذا فعلت الغربة بصديقي؟!

قبل عشر سنوات عندما ودعته باكيًا كأم ثكلى في مطار القاهرة لم أكن أتوقع أن مثل هذه اللحظة ستمر علينا.. كنا نتواصل يوميًا تقريبًا في الشهور الأولى وبعدها تباعدت الاتصالات، قبل أن يكمل العام توفى والده فزاد تواصلنا من جديد.

في اجازته الأولى بعد حادثة الوفاة بستة أشهر لمحت ذلك الانكسار في نظرة عينيه فعرفت أنني في طريقي لأفقده. في أول رمضان بعد أجازته لم يتصل أحدنا بالآخر. وفي العيد أرسل لي رسالة نصية جاهزة فعرفت أن أمر الله قد نفد.. لم أره أو أسمع صوته بعدها سوى مرات قليلة. وها نحن اليوم نجلس غرباء التقيا في قطار..

- أعلم ما تفكر فيه.

انتشلني من شرودي بهذه الجملة، ثم أضاف بعينين مغرورقتين بالدموع وابتسامة واهنة بها أثر من عماد القديم:

- نعم تغيرت.. عماد الذي عاد اليوم ليس هو عماد صديقك الذي سافر قبل سنوات عشر، سحقتني الغربة يا يحيى.. وسقطت بعد وفاة أبي.. ميتًا

ثم بدأ يحكي عن وفاة والده لأول مرة منذ توفى.........

عندما يتم إبلاغك برحيل والدك وأنت في الغربة وحيد مكبل عاجز فإن عقلك لا يستوعب الأمر ولا يستطيع إدراكه.

تظن أن هناك خدعة ما..

إشاعة شريرة أطلقها شخص مستهتر

فقرة سخيفة في برنامج مقالب سمج

كابوس متقن

أي شيء

أي شيء سوى أنه رحل بالفعل..

لا تستوعب أن يُنقل إليك خبر رحيله هكذا كما تنقل أخبار الرياضة والطقس، لا فرق سوى في بضعة كلمات وحروف.. الآلية التي يحول بها العقل الكلمات والصور إلى معان مفهومة يصيبها عطب أو خلل.

تسمع كلمات مثل

رحيل

عزاء

جنازة

دفن..

تشعر أنك سمعتها من قبل لكن عقلك يفشل في معرفة معناها وفي الاستجابة لها، وفي تحديد رد الفعل المناسب عليها.

ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

أبكي مثلًا؟؟

أصرخ؟؟

ألقي بنفسي من النافذة ؟؟

الشيء الوحيد الذي يستطيع العقل استيعابه أنه إذا رحل الأب فإن الابن الأكبر لابد أن يكون بجواره..

يصلي عليه

يمشي في جنازته

يقف على قبره

ويتلقى عزاءه

وجودك في أي مكان آخر يا يحيى هو شيء لا يستوعبه العقل ولا يستطيع التعامل معه.

أنفصل عن الدنيا تمامًا.. أراقب المشهد كأني مجرد مشاهد خارجه.. مشهد سينمائي مصور من زاوية رأسية.. أراني على الكرسي الموجود في مدخل الغرفة.. على يميني يجلس على الأرض

زميلي أحمد.. وأمامي جاري هاني.. وعلى السرير إلى يساري ثالث لا أتبين ملامحه

الثلاثة عيونهم محتقنة متورمة

وأنا.. تمثال شمع بملامح بليدة محايدة بلا حياة

أرى شفاههم تتحرك كأنهم يتكلمون ثم تتحرك شفتيّ أيضًا لكنني لا أسمع شيئًا أمسك الجوال أنظر إلى شاشته ثم أضعه بجواري..

يقول أحمد شيئًا فأمسكه مرة أخرى وأضعه على أذني لابد أن أحدهم يتصل.. تحدثت مع أشخاص عديدين لا أذكرهم ولا أذكر ماذا قلنا.. كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن العقل يمكن أن يتوقف عن التفكير. كان الأمر أشبه بانقطاع الإرسال عن التلفاز في الماضي.. حيث تظهر على الشاشة ملايين النقاط السوداء والرمادية المضطربة ويصدر الجهاز صوت مزعج رتيب.. ششششششششششششششش

في الصباح عاد الإرسال ضعيفًا.. توضأت وصليت صلاة الغائب على شخص ما لا أعرف من هو لكنه ليس أبي بالتأكيد. بعد ساعتين جاءني اتصال منك.. أخبرتني أن كل شيء تم على ما يرام (على ما يرام ؟! ألم تجد عبارة أخرى غير هذه يا يحيى؟!) ثم قلت بلهجة صادقة: كلنا حوله ومعه.. اطمئن

أطمئن؟؟!!

بدت المكالمة كلها بلامعنى بالنسبة لي

"كلنا معه"

ماذا تعني هذه العبارة وماذا عساي أن أفعل عندما أسمعها؟! هل من المفترض أن أهدأ لأنكم كلكم معه و وأنا هنا وحدي؟ هل يجب أن أحضر مدفعًا رشاشًا وأقتلكم جميعًا؟ هل ينبغي أن أطردكم وأطلب منكم أن تتركوه وحده؟؟ لأنه لا يحق لأحد أن يكون معه طالما هذا الشخص ليس أنا. وانقطع الإرسال مرة اخرى.. شششششششششش

وظل الأمر هكذا.. تارة يعود الإرسال وتارة ينقطع لكنني لم أصدق أبدا أنه رحل..

كان ثمة هاجس يحدثني أن هناك شخص شرير سيظهر فجأة ويقول لي بسماجة: كنا نمزح.. سامحنا وكنت على استعداد أن أسامحه. شريطه أن يمنحني فرصة أخيرة..

لأرتمى في حضن أبي

لألثم كفه الأسمر المعروق

وأمنحه عناقًا طويييييلا يليق أن يكون العناق الأخير

عندما دخلت البيت في اجازتي الأولى لم يكن أبي في استقبالي لم يجلس معنا للغداء. كانت غرفته مغلقة فقلت لابد أنه نائم أو ربما كان في زيارة لأحد الأصدقاء.

بعد الغداء أتيت أنت يا يحي كنت تعرف ما أفكر فيه فاصطحبتني إلى هناك وعندما رأيت المقبرة التي كتب على شاهدها "المرحوم / سعد الشرقاوي" أدركتُ ما حدث.. أدركت أنه لن يطلب مني ثانيةً أن ألصق له لصقه آلام الظهر، لن يأمرني بخفض صوت المذياع لأنه يريد أن يقرأ أو يطلب مني أن أختبر حفظه لسورة "ق" لن يهديني وردة جديدة بدلًا من تلك التي ذبلت.

لن يذهب معي لصلاة الفجر ولو لمرة وحيدة.. أخيرة مهما أردت ذلك.

أدركت أن علي أن أكمل بقية أيامي هكذا وحيدًا ومقسومًا وعاريًا.. أدركت كل هذا فبكيت يا يحي بكيت للمرة الأولى بعد مائة وثمانين يومًا من رحيله.

سامحني يا يحي ثمانية أعوام وأنا أنتظر هذا اللقاء فأنا لم أكن لأحكي هذا الكلام إلا لك.......................

انتهى كلامه وسبح في هواء الغرفة المكيفة صمتًا ثقيلًا وكثيرًا من الدموع

سامحيني أنت أيضًا يا سارة

سامحني يا حضرة الضابط

لم أتحمل أن أتجرع هذه المرارة وحدي

في الرسالة القادمة يا حبيبتي سأحكي لك عما دار بيننا ونحن نتمشى في طرقات القرية الضيقة، محاولين استنقاذ بعض الذكريات من براثن الزمن.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الخامسة عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

لا تغضبي مني ياسارة

الألم يطهرنا،

لا تنسي أيضًا أن أحد تعريفات الإنسان أنه حيوان حزين.

على ذكر الحزن..

في أغنيته الشهيرة التي لا أذكر اسمها هل كان كاظم يقول

"إنني أسكن في الحزن" أم كان يقول "في الحب"

على كلٍ لا أظن أن هناك فرقًا يستحق الحيرة.

....

طلب مني عماد أن نتجول في شوارع قريتنا الضيقة علّنا نعثر على بعض ذكرياتنا السعيدة..

الذكريات السعيدة محض أكذوبة

الذكريات كلها حزينة

فحزينها حزين

وسعيدها يصبح حزينًا أيضا بما يثيره في النفس من مشاعر الفقد والحنين.

لم أشأ أن أزيد من إحباطه بهذه الأفكار فاستنشقت نفسًا عميقًا من هواء الشارع البارد المنعش وسألته بابتسامة ماكرة:

أما زالت هناك ضحكة مختبئة في الأعماق أصلًا؟

نظر لي بإعجاب وسأل ضاحكًا: كيف عرفت ؟؟

أبدًا.. في البداية ظننته عبد الله، لكن لما قرأت الديوان ووجدت دائرة حول نفس المقطع الذي ظللته في نسختي القديمة عرفت أنه أنت.. من غيرك يا صديقي سيضع دائرة حول هذه الكلمات

"لا تلومونا حين نفرط في حزننا إلى هذه الدرجة

نحن في الحقيقة نريد أن نفرغه كله

ربما نعثر قبل الموت على ضحكة مختبئة في الأعماق"

عبقري هذا الرجل يا سارة

عبقري وكئيب ورائع

أفكاره غريبة

وتشبيهاته مبهرة

كلماته صادقة وقاسية وفجة وبديعة ومبهمة ومؤلمة ومدهشة

كأنه حين يهم بالكتابه يتلبسه عفريت من الجن

مواضيع دواوينه أشبه ما تكون بالمغربي محمد شكري صاحب "الخبز الحافي" الكتاب الذي أهديتك إياه ذات فالانتين..

كنت وقتها أمثل دور شيخ متشدد على مسرح الجامعة وكعادتي كنت أتقمص الشخصية طوال الأربع وعشرين ساعة في أيام العرض..

وعندما قلت لي متحدية لن تصمد في ممارسة طقوس المتشدد طوال فترة العرض دفعني عنادي للتمسك أكثر بتلك العادة

لكنني أسقط في يديّ يوم الفالانتين ولم أعرف كيف أتصرف

إلى أن اهتديت إلى شراء هذا الكتاب وكتبت في الإهداء:

الأخت سارة

هابي فالانتين داي والعياذُ بالله

في اليوم التالي سألت: أيعقل أن يهدي شيخٌ متشددٌ مثل هذا الكتاب البذئ لامرأة أجنبية؟!

فأجبتك: أيعقل أن يهدي شيخ متشدد أي هدية لأمرأة أجنبية؟!

فضحكت..

أما أنا فلم أضحك بالطبع لأن العرض كان مايزال مستمرًا.. ينظر عماد إلى القرية بدهشة تمامًا كما ينظر عبد الله للإسلام

كأنه قفز العشر سنوات الماضية في خطوة واحدة عبر ثقب أسود

مررنا بمنزل طيني عتيق ومظلم يعرفه جيدًا، فأشار إليه وسأل: أليس هذا بيت شمس الخبازة؟ أين ذهبت؟ ماذا حدث لها؟

فأجبته بحياد: توفت بعد أن افتتح الحاج خليل النعماني المخبز الآلي بشهرين.. لابد أنك مررت به في طريقك للمسجد. . من الجميل أن يرحل الإنسان في الوقت المناسب.

هز رأسه ثم قال: أريد أن ألعب الكرة.. هل نذهب غدًا للملعب؟

قلت تهربًا من الإجابة: أي ملعب؟

الملعب!

فأجبت ببطء مشفقًا عليه: آ.. لقد اشترى سيد الوكيل ذو الرائحة الكريهة أرض الملعب من والد ابراهيم، وبني فيها صفًا من المحلات خصص إحداها لألعاب الفيديو جيم والبلايستيشن، وعرض الباقي للإيجار، ثم أضفت مازحًا: ما رأيك في الاكتفاء بمباراة بلاي ستيشن؟ وسأدعك تلعب ببرشلونة.

شرد في الأفق ولم يستجب للمزحة فقلت محاولًا التخفيف عنه: لا عليك يمكننا أن نستأجر أحد الملاعب الجديدة المنتشرة في البلدات المجاورة.. إنها ملاعب مميزة.. أرضيتها من النجيل الصناعي

ومزودة بأضواء كاشفة فسأل بنبرة يائسة: مخبز آلي؟ ومطعم سمك؟ وملاعب للإيجار؟ ألم يعد هناك شيئًا مجانيًا في هذا البلد؟!

فأجبته بسرعة وثقة: بلى. .. نحن.. والموت

بالله عليك حاول أن تذكرني يا حضرة الباشا الضابط هل هناك شيء آخر؟

هل يوجد شيء مجاني في هذا البلد سوانا.. نحن والموت؟

أرجو ألا تكوني مللت من الحديث عن عماد يا سارة.

أعلم أنها حكاية حزينة ومكررة.

حسنًا سأتوقف مؤقتًا عن الحديث عنه لكن بعد أن أخبرك بإجابته غير المتوقعة التي أجابها عليّ حين سألته: لماذا لم تعد؟ لماذا تحملت كل هذا العذاب والألم ولم تعد بعد عام أو عامين؟

وأستأذنك فقط أن نؤجل هذا للرسالة القادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها..

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السادسة عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

لست في مزاج جيد يا سارة غير أني أحبك..

أحاول كثيرًا تجنب الكلام المباشر كما تعلمين لكنني أحيانا أقف عاجزًا لا أملك أن أقول سوى أني أحبك.. وسوف أحبك إلى الأبد إلى ما بعد نهاية الأشياء.. سوف أحبك حتى تصبح مصر الجديدة.. مصر القديمة وحتى تصبح مصر القديمة.. مصر القديمة جدًا.......

في الطريق نمر بمدرستنا يجرى عماد بنزق طفولي ويقول بمرح: هيا نقفز السور. بصعوبة بالغة نجتاز السور ونحن نلهث ونضحك من فرط الإثارة.

في الجهة الأخرى يجتاحنا حنين كبير، نصعد إلى السطح لنشاهد أرض الطابور من الأعلى كما تعودنا في اليوم الذي ليس لدينا فيه مباريات، نطل على طفولتنا البريئة فتبدو هناك بعيدة وباهتة وغريبة كأننا لم نمر بها يومًا.. ندخل أحد الفصول المفتوحة، نجلس في (التختة) الثانية في الصف المجاور للنوافذ، يقف عماد على السبورة ويكتب بخط كبير (محمد مغاوري عبد السميع)

التلميذ المشاغب الذي كان يكتب اسمه دومًا عندما يقف علينا بين الحصص بصفته رائد الفصل.

يهتف مقلدًا صوت الأستاذ هشام مدرس العلوم الغليظ كصوت راديو أوشكت بطاريته على النفاد:(قيام..اقف عدل ياض يا مغاوري.. اسمك مكتوب ع الصبورة ليه؟... جلوس يا غجر)

نضحك.. نفتح الأدراج

نتطلع إلى الأسماء الكثيرة والقلوب والأسهم المحفورة على المقاعد والأبواب وإطارات النوافذ.. نفتش عن الأحلام التي كانت بحجم العالم فنعثر فقط على بقايا حروف ونقوش مطموسة تمنحنا مزيدًا من الشعور بالفقد. نتساءل عن ذلك الذي أخبرنا عن الخير الذي ينتصر في النهاية. نهمس في حنق أي نهاية كان يقصد؟؟ ولما أعيانا البحث، سألته: لماذا جعلتنا نقفز السور؟ فأجاب بإحباط: أتلمس شيئًا يمنعني من السقوط. تبادلنا نظرات خاوية ثم انحنينا على هشاشتنا وجلسنا على عتبات السلم قبل أن أسأله: لماذا لم تعد؟ لماذا انتظرت كل هذا الوقت؟

شرد عماد وتنهد تنهيدة عميقة ثم قال: هل تعلم الشعور الذي ينتابك عندما يضيع منك شيئًا شديد الأهمية؟ تبحث عنه في كل ركن من البيت فلا تجده.. وعندما يتبقى غرفة واحدة فقط لم تبحث فيها تقف أمامها مترددًا مرعوبًا.. هل تدخل وتغامر بأن

تكتشف أن ما تبحث عنه ضاع إلى الأبد، أم تفضل أن تترك الغرفة مغلقة و تحتفظ بداخلك ببقايا أمل مبهم ضئيل؟!

هذا ما حدث معي.. فضلت أن أترك الغرفة مغلقة خشيت أن أعود فأكتشف أن الأسى والحزن الذي أشعر به ليس فقط بسبب الغربة. أنا قديم يا يحيى.. قديم جدًا.. لا أنتمي لهذا العالم.. تركت نفسي هنا وسافرت لأبحث عن أشياء لا تعنيني وحين عدت لم أجد ما تركته لم أجدني.. لم أجدني يا يحيى.....

سارة أعلم ما تفكرين به لكنه صديقي يا سارة. صديقي الوحيد.. أعلم أيضًا أنني وعدت أن أتوقف عن الحديث عن عماد مؤقتًا لذلك سأحكي لك عما حدث معنا في بقالة عم جلال في الرسالة بعد القادمة، أما الرسالة القادمة فستكون عن شيء آخر مختلف تمامًا.. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها..

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السابعة عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

كيف كنت أحتمل هذه الدنيا قبلك يا سارة؟

بالأمس سألني عماد ماذا ستفعل إذا تركتك؟ هل ستنتحر؟

فقلت له باستغراب: أينتحر الأموات؟!

ليس في قريتنا مجذوب ولا في القرى المحيطة بنا، ولهذا لا أثق في الدراما المصرية..في البداية امتنعت عن مشاهدتها لكني كنت أتقبل الأمر بصدر رحب إذا تصادف وجودي في مكان يعرضها، واستمر هذا الحال معي لفترة طويلة حتى تصادف ورأيت ذلك المشهد في محل نبيل الحلاق الغبي الذي يمسكني من أنفي.. كان مسلسلا عن الصعيد وفي المشهد وقف رياض الخولي بجسده الضخم وقال لابنه (أحمد عبد الغني) باستعطاف: أني لازم أتجوز يا ولدي عشان أخلف واد ولا اتنين بدل أخوك اللي مات!!! بعدها اتخذت قرارًا نهائيًا بعدم مشاهدة أي مشهد من الدراما المصرية أيا كان السبب أو الظروف..

لا أحد يعوض غياب أحد يا سارة

إطلاقًا..

الأم لا تعوض الأب

والصديق لا يعوضه صديق آخر

أو أخ

أو زوجة

مهما حاولوا

مهما اجتهدوا

كل قريب يغيب يترك في روحك علامة

بصمة..

مكانًا لا يسع شخصًا آخر

فراغًا لا يمتلئ إلا به

إذا عشت معظم عمرك مع شخص ثم غاب هذا الشخص، ألست بذلك تفقدين جزءًا من روحك!!

في مقال قديم للعبقري الجميل عمر طاهر كان يقول أنه عندما يختفي اللون الأخضر من الحياة فمن المحتمل أن يحاول الأزرق تعويض غيابه.. سيجتهد بإخلاص وعزيمة سيبذل قصارى جهده لكنه لن يصبح أخضر مهما أراد ذلك

هل تفهم شيئًا مما مضى يا حضرة الضابط؟

هل هناك أمل؟ أي أمل أن تفهم شيئًا من هذه الرسائل؟ آه صحيح كدت أنسى.. أريد منك خدمة يا حضرة الباشا الضابط

أريدك أن تتوسط لعبد الله للعمل لدى أحد معارفك من أصحاب القنوات الفضائية

الولد قرر أن يبحث عن عمل حتى يتمكن من الإنفاق على خروجاته مع صباح البنهاوي ذات التضاريس البارزة

الفاجرة تبتزه!! في كل مرة تخرج معه تبدي إعجابها بحذاء أو فستان أو عباءة هذا طبعًا بعد أن تكون قد طفحت الكباب والكفتة في أحد المطاعم الفخمة

والولد المغفل لم يعد يقوى على مجاراتها من المصروف الذي يحصل عليه من والده، لذلك قرر أن يعمل وطلب مني المساعدة. وبما أنه لم يكمل تعليمه وليس لديه أي موهبة أو حرفة، كما أنه يمتلك مستوى متميزا جدًا من الغباء والعته، فقد رأيت أن أنسب شيء له هو أن يعمل خبيرًا استراتيجيًا في أي قناة فضائية، وأحب أن أطمئنك أنه سيشرفك.. فقد قمت بإعطائه بعض النصائح المفيدة بنفسي، فأخبرته أن عليه أن يستخدم كلمة "إرهاصات" في بداية حديثه حتى يجذب إذن المستمع.. كما أكدت عليه أن يذكر عبارة "حروب الجيل الرابع" من ثلاث الى أربع مرات على الأقل..

وأن يثني على جهود الأجهزة الأمنية.. ويحذر من خطر الإخوان والتنظيم الدولي والماسونية العالمية

ولا بأس أن يذكر أنه حصل على معلوماته من مذكرات هيلاري كلينتون، وتقارير كلية الحرب الأمريكية، وأبحاث جامعة ماساتشوستس، لكنه عندما لم ينجح في نطق الأخيرة نصحته أن يستبدلها بعبارة "أحدث الأبحاث العالمية".

سأكون شاكرًا جدًا يا حضرة الباشا الضابط لو ساعدته. لم يعد الأمر متوقفًا على أن صباح تستحق الحب أم لا يا سارة.. حاولت أن أشرح له أن فتاة تأكل نصف كيلو طرب مع السلطات والخبز في وجبة واحدة لا يمكن أن تعرف الحب، لكن يبدو أن أمر الله قد نفد.

لقد تمكن الحب من قلب عبد الله.. لو رأيت كيف تلمع عيناه ويشرق وجهه حين يتحدث عنها لعرفت أن أوان النصح والكلام قد فات.

طريق الحب إذا بدأ لابد أن يمضيه الإنسان إلى النهاية.. وليس في الإمكان إلا محاولة تقليل الخسائر.

على كلٍ

لقد وفيت بوعدي ولم أتحدث عن عماد هذه المرة لكنني سأحكي لك عنه وعما حدث معنا في بقالة عم جلال في الرسالة

القادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثامنة عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

يقتلني عجز اللغة يا سارة..

المشاعر المحبوسة بداخلي تزأر بغضب، تخمش أضلاعي بمخالب طائر أسطوري محبوس في قفص..

أتدرين أني لم أرض أبدًا عن أيا من الرسائل التي أكتبها لك؟

كيف أصف لك كم أحبك..

كم أهواك..

كم أشتاق للذوبان فيك..

للتلاشي بك..

أفكر جديًا أن أضع قلبي (هنا) كي تفهمي ما أعنيه، لكنني أتراجع في النهاية كالعادة وأبرر تراجعي بأنني أخشي أن أتعدى على ما لا أملكه..

أعلم أني أكذب وأصدقني..

أصبح أطفال القرية الأشرار يتعاملون معي على أني مجنون يا سارة

يتجنبون المرور بجواري، وكلما مررت بهم يتهامسون ويشيرون إليّ ثم يضحكون..

تُرى هل أخبرتهم أمينة المزغودة بسري؟!

كنت أقف في غرفتي معطيًا ظهري لباب الغرفة وأمارس طقسي المعتاد..

ألعن الفراغ والخواء الذي يزاحمني في الغرفة، أسب اللاشئ الذي يعبق المكان بألفاظ شديدة البذاءة والسوقية (لا أستطيع ان أصف لك يا سارة مدى الراحة والطمأنينة التي تعتريني بعد هذا الطقس الممتع)

ثم ألتفت لأراقب ملامحي في المرآة وهي تتحول بعد هذا الكم من السباب لملامح سائق ميكروباص محترف.. ففوجئت بالمزغودة واقفة خلفي تضع يدها اليمني على خصرها وتضع سبابتها اليسرى على شفتها السفلى قبل أن تقول بدهشة وهي ترفع حاجبها الأيمن:

- مسم.. اللهم احفظنا.. بتشتم مين يا سي يحيى؟!

نظرت لها نظرة شريرة كنظرات زكي رستم في رصيف نمرة خمسة ثم قلت بنبرة مهددة: لوحد شم خبر باللي شفتيه دلوقتي هدبحك..

ثم صرخت بقوة هادرة: امشي اطلعي بررره!! ففرت مرعوبة.. وظلت تخشى التعامل معي من بعدها وحتى واقعة الفأر المخزية لابد أنها انتقمت مني بعدها بسبب الرعب الذي سببته لها..

أم أنه نبيل الحلاق الغبي الذي يمسكني من أنفي ينتقم مني بعدما سببته أمام زبائنه وتركت له المحل.. هل يمكن أن يصور له غباؤه أن تلك الواقعة كانت من أعراض الجنون؟! كانت هناك ذبابة ضخمة تحط على المرآة أمامي أثناء الحلاقة وعندما هم نبيل بقتلها مستخدمًا مجلة قديمة صرخت فيه بفزع، وطلبت منه ألا يفعل فسألني باستغراب: بتقرف؟

فقلت له بعفوية شديدة: مش الفكرة..بس شكلها حامل. بعد أن سمع إجابتي تطلع في بدهشة قرابة الدقيقة، ثم أبعد الأمواس والمقصات من أمامي، وبدأ من بعدها يعاملني بحرص وحذر حتى يوم مشاجرة صباح البنهاوي.

هل يكون هو؟!

لا أدري..

على كلٍ أنا لا أغضب من اتهامي بالجنون بل على العكس. فهذا يعني أنني مختلف عن القطيع ومتميز ولا بأس أن يفسر الأغبياء الذين يحيطون بي هذا الاختلاف على أنه جنون. أقول لعماد أثناء تجولنا على حدود القرية:

- إن الاختلاف والتفرد هو الحياة..
هو قيمة الانسان..

وفجأة يقتحم خلوتنا شريف الوكيل شقيق سيد الوكيل ذي الرائحة الكريهة، و يقطع حبل أفكارنا بلزوجته المعهودة.

دائمًا ما يظهر هذا السمج في الأوقات غير المناسبة كعطسة تداهمك أثناء السجود فلا تدرين من أي مكان خرجت! عم جلال البقال يسميه شريف أنبوبة لأنه على حد قوله كالأنبوبة لا ينفد الغاز منها إلا ونحن في أمس الحاجة لها.

سلم شريف على عماد وبدأ يمشي معنا..

الوغد السمج يتعامل مع عماد على أنه ثري عربي ويريد أن يشاركه في أي (مصلحة) حسب تعبيره. عندما بدأ يعرض أفكاره التجارية سئمت منه وشعرت برغبه عارمة في قتله خنقًا..

القتل خنقًا من أفضل الطرق للانتقام من الأوغاد، ولإفراغ الرغبة العدوانية الكامنة في الانسان. شعرت بالراحة تغمرني وأنا أتخيل وجهه المحتقن وهو يتحول رويدًا رويدًا إلى اللون الأزرق وذراعاه يجدفان في الهواء بلا طائل، قبل أن يخمدا ببطء ويسقطا بجواره، ويرتاح العالم من شروره وسماجته.

أفقت من شرودي على ضحكته السخيفة وهو مازال يحكي لعماد عن أفكاره التجارية الخطيرة. ولما كنا في مكان مكشوف فقد اكتفيت بأن تظاهرت بالتعثر في الأرض ودفعته بكل قوة فسقط في أرض موحلة يعدها صاحبها لزراعة الأرز.

اعتذرت له بلامبالاة فنظر لي نظرة غاضبة ثم تجاهلني وقال لعماد وهو ينفض الطين من على ملابسه بلا جدوى: حصل خير هروح أغير وأرجع.. استناني.

بعد أن ابتعد قليلًا ضحكنا كثيرًا وقال لي عماد ويخبط كفًا بكف: شرير.

فرددت ببراءة: بالعكس.

قال عماد بلهجة حاول أن يمنحها الكثير من الجدية: إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

فقلت له: كان هذا فيما مضى. ذئب هذه الايام يأكل الغنم كلها، القاصية والدانية، فإذا كان الأمر كذلك فأنا افضل أن يأكلني الذئب وحيدًا متفردًا..

الذين يؤكلون في جماعات يتحولون إلى مجرد أرقام..

إحصاء في جريدة بعد أن يفرغ الناس من قراءتها سيفرشونها على موائدهم المتخمة باللحم والأرز واللامبالاة والقسوة والنهم.. وسينسون أنه في هذه اللحظة نفسها في مكان ما من الأرض هناك أم أصبح فؤادها فارغًا..

هناك أم أصبح بإمكانها أن تنام مبكرًا لأنه لم يعد هناك من تسهر كي تطمئن على عودته، لكن الغريب أن النوم مبكرًا لن يريحها..

هناك ابنة ستذهب لحفل نهاية العام الدراسي وحدها، وعندما تطلب منها المدرسة أن تحضر ولي أمرها ستحتار..

ستحتار رغم أن هذا الأمر لا يجب أن يكون محيرًا أبدًا

أبدًا يا سارة..

أما أنا فإذا لم تُكتب لي الحياة كما أتمنى فعلى الأقل أريد موتة تليق بي.

أريد أن يبكني الناس بما يليق بإنسان..

يذكرون اسمي..

ويعرفون صورتي..

شرد عماد في كلماتي ثم سألني: هل تحب جيفارا؟

أدهشني أنني تذكرته أيضًا، فقلت له وأنا على دهشتي: نعم.. جدًا.

- ولكنه أصبح مستبدًا في نهاية حياته.

- أحبه في المرحلة التي سبقت تحوله إلى مستبد.. حين وهب حياته للآخرين.. للمظلومين والمضطهدين.. حين قال أنني أشعر بكل صفعة تنزل على وجه مظلوم على هذه الأرض.

- ألا يجب أن نقيّم الإنسان بجميع مراحل حياته؟

– هكذا لن يتبقى لنا أحد لنحبه.. ثم إذا سلمنا لمنطقك لماذا تصر على محاسبته على مرحلة الاستبداد، وتنسى كل التضحيات التي قام بها؟!

– إنما يحاسب المرء بخواتيم أعماله؟

– مالنا والآخرة؟!

– أتحبه أكثر أم سيدنا عمر؟

– أسئلتك الليلة غريبة!

– أجبني.

– أحب سيدنا علي أكثر.

– ولم؟

– لأنه تعرض للظلم من كل الناس.. ظلمه محبوه وأتباعه أكثر مما ظلمه خصومه.

– أكنت لتقاتل في صفه لو كنت موجودًا وقت الفتنة؟

– كلا بالتأكيد.

– ؟؟؟!!!

– ربما لأني لم أصل أبدًا ليقين يدفعني للقتال دفاعًا عنه! وربما لأني جبان! وربما لكليهما!

لمحنا خيال إنسان آت من بعيد فقطعنا حديثنا، وتبادلنا نظرات مصدومة خشيةً أن يكون شريف أنبوبة قد عاد كالعادة في وقت غير مناسب.

وفجأة قال عماد بمرح: هيا نعدو!

- إلى أين؟

-لا يهم.. المهم أن نهرب.. علينا أن نفكر الآن في الهرب.. فقط في الهرب.

عدونا لكننا لم نسبق ظلنا.. وحملتنا سيقاننا إلى عم جلال البقال الذي لم يكن في مزاج جيد على غير العادة، لأن زوجة ابنه الحيلة قد ولدت للتو، والمولودة كانت للمرة الرابعة أنثى. لا يا حضرة الباشا الضابط ليست المشكلة أنها أنثى، عم جلال ليس من هذه النوعية. المشكلة أكبر من هذا بكثير.

لكن اسمحي لي يا سارة أن أحكي لك عنها في الرسالة القادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة التاسعة عشرة

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

في أحد البرامج الإذاعية سألت المذيعة عبد الحليم حافظ عن الشخص الذي سيصحبه معه إذا سافر للقمر، وكان مسموحًا له باصطحاب شخص واحد فقط..

فأجاب عبد الحليم أنه سيصطحب "كامل الشناوي" الشاعر والصحفي المعروف مؤلف أغنية (لا تكذبي) الشهيرة. لم يكن كامل وسيم الملامح لكنه كان يملك شخصية مرحة ومحببة للجميع، لكن هذه الشخصية الجميلة لم تشفع له لدى حبيبته الفنانة نجاة الصغيرة التي فضلت عليه الكاتب "يوسف إدريس" حسب الرواية التي يتداولها الناس حول كواليس أغنية (لا تكذبي). آه من النساء..

عندما أتخيل نفس السؤال يطرح عليّ يا سارة أقرر بحسم أنني لن أصطحب أحدًا.

نعم..

إذا افترضت أني سأسافر إلى القمر وليس مسموحًا لي سوى اصطحاب شخص واحد فلن أصطحب أحدًا..

ليس حبًا في الوحدة..

وليس استغناءً عن الناس..

عن الأصدقاء..

عنك يا سارة..

غاية ما في الأمر أن كثيرين يتوقعون أن يكونوا هم هذا الشخص، وأنا أفضل أن أتجرع مرارة الوحدة على أن أخذلهم. في رواية ربيع جابر البديعة (دروز بلجراد) رغم مأساوية حكاية حنا يعقوب بطل الرواية، ورغم المواقف المؤلمة والقاسية العديدة في الرواية، إلا أن أكثر موقف آلمني وأثر بي جدًا هو موقف يبدو هامشيًا في أحداث الرواية، وليس له علاقة ببطل الرواية، حيث تم القبض على أبناء الشيخ غفار عز الدين الخمسة وحكم عليهم بالنفي، وحين شفع لهم لدى الحاكم سمح له الحاكم بأن يختار واحدًا فقط من أبنائه لينقذه ويترك الباقين ليواجهوا مصيرهم المؤلم..

هل تتخيلي حجم المأساة التي وُضع فيها الشيخ غفار يا سارة؟

هل تتخيلي حجم الألم والحسرة اللتين سيعاني منهما بقية حياته؟

عندما تناقشنا حول الرواية قال عماد: ولكنه على الأقل أنقذ أحدهم.

وقلت أنا: ولكنه خذل أربعة.

الخذلان يا سارة..

الخذلان أقسى ما يمكن أن يقاسيه المرء هو الخذلان لا أتحمل أبدًا أن أخذل أحدًا يا سارة أبدًا..

ولهذا أكره الأمل. في أغنيته الشهيرة (لحن الخلود) يقول فريد الاطرش: "الحب من غير أمل أسمى معاني الغرام" والحقيقة أن الحياة برمتها دون أمل هي أسمى معاني الحياة..

الأمل مقلق ومؤلم وغير منطقي..

لابد أن يكون غير منطقي وإلا تحول من أمل الى توقع. قبل عدة سنوات كنت أتجول بين قنوات التلفزيون ووقفت عند إحدى القنوات أظنها كانت قناة النيل الثقافية (القائمون على تلك القنوات يجب أن يعدموا في ميدان يا حضرة الباشا الضابط) كان هناك مذيع غريب، يستضيف ضيفًا غريبًا، ويتحدثون في موضوع أغرب، ثم جاءهم اتصال من مشاهد غريب، ألقى عليهم السلام ولم يوجه كلامه للمذيع ولا للضيف، بل وجه نداءً لأبنائه وزوجته ليقوموا بلم الغسيل أو تغطيته لأنه لا يستطيع الاتصال بهم، فقام المخرج بقطع الاتصال. المشهد كله كان عبثيًا بامتياز.. لكن أتدرين ما السبب في كل هذا العبث؟ إنه الأمل..

الأمل الذي جعل هذا المذيع الغريب يصدق أن هناك من يهتم ببرنامجه ويشاهده غير أبيه وأمه ناهيك أن يتصل به..

وهو الذي جعل هذا المتصل الغريب يتوقع أن أولاده وزوجته يمكن أن يشاهدوا برنامج مثل هذا البرنامج..

الأمل أيضًا هو الذي جعلني أتوقف عند هذه القناة ظنًا مني أنني قد أستفيد منها شيئًا لمجرد أن اسمها " النيل الثقافية".

على العموم لقد كانت هذه التجربة درسًا مهمًا في سبيل التخلص من الأمل..

حتى المزاج السيء لعم جلال البقال كان بسبب الأمل.. عم جلال رجل عجوز جدًا هو أكبر أهل القرية سنًا وهو الوحيد الذي ماتت زوجته قبله.. منذ ولدت وهو على الهيئة نفسها، لا يتغير كأنه وصل المرحلة القصوى من الهرم المرحلة التي لا يمكن أن يشيخ المرء بعدها يقول عماد أن أمه كانت تخبره أن عليه أن يشرب اللبن حتى لا يصبح مثل عم جلال..

ثم يضيف: لا أعلم ماذا كانت تقصد بكلمة (مثله)، هل تقصد حتى لا أصبح هزيلًا ومحنيًا مثله، أم تقصد حتى لا أعيش حتى أودع كل أحبابي وأبقى وحيدًا ومنسيًا مثله؟ عم جلال أيضًا يمتلك قدرة عالية على الدعابة رغم عصبيته الشديدة وسرعة غضبه، نحب أنا وعماد أن نجلس معه ونستمع لحكاياته العذبة عن القرية وعن تاريخ عائلاتها وأسرارها. لكن عم جلال اليوم لا يتكلم كثيرًا.. رحب بنا بفتور، وبعد فترة من الشرود قلت محاولًا حمله على الكلام: مبروك الخير اللي جالك ياعم جلال، أنا سمعت أن

مرات نادر ولدت، هي جابت ايه؟ ابتسم ابتسامه باهتة وقال بخفوت: بنت. نادر ابن عم جلال الوحيد لا يعيش له أطفال.. هذه المرة الرابعة الذي تلد فيها زوجته أشجان، والمرات الثلاث الأولى ماتت الطفلة قبل أن تكمل العام.

قلت محاولًا الترويح عنه: إن شاء الله ربنا يخليهاله ويبارك فيها. فرد كأنه لم يسمعني: البت أشجان راحت ضريح الشيخ حسونة من أسبوع عشان تتبارك بيه قبل ما تولد، وهناك قابلتها الولية الغجرية اللي اسمها "عجايب"، وقالت لها أنت هتولدي بنت، ولو عايزاها تعيش سميها "لميس".

كانت "عجايب" عجوز غجرية تأتي لقريتنا في مواسم الحصاد وتقيم خلال هذه الفترة في ضريح الشيخ حسونة، وكنا نتجبنها ونحن صغار لأنها كانت غريبة الأطوار و لها نظرات مخيفة ويحيطها غموض مريب، لكنني لم أجد في حديثها مع أشجان ما يقلق فسألته: وايه المشكلة؟

فرد بضيق: إيه المشكلة ازاي يا يحيى؟ البت أقنعت نادر وعايزين يسموا بنتهم "لميس"، والمشكلة لو أنا عارضت والبنت جرى لها حاجة هشيل ذنبها، بس برضه أنا عندي تموت ولا أنها تكبر وهي لميس. فسأل عماد بدهشة كبيرة: ده كله عشان اسم لميس يا عم جلال؟

-طبعا يا بني الولية عجايب دي ملعونة والاسم ده تعويذة شريرة.. وكل اللي اسمهم لميس بيعيشوا مدة طويلة صحيح، لكن بيجيلهم لعنة وبيتحولوا لكائنات غريبة شكلهم من بره بني آدمين لكن هم مش بني آدمين.. أنتو ما بتشوفوش تلفزيون ولا إيه؟!
أفزعتنا نظرية عم جلال فغادرناه على عجل قبل أن يدخل في التفاصيل.

هل تصدقي هذه الحكاية حول اسم لميس يا سارة؟
هل تصدق يا حضرة الباشا الضابط؟ كم لميس يعمل معكم في الأمن الوطني؟

أنا عن نفسي أصدق عم جلال في كل حكاياته.. بالمناسبة هو يعرف حكايات كثيرة قد يأتي الوقت وأحكيها لك يا سارة، أما الرسالة القادمة فلا أعلم تحديدًا ماذا الذي سأقوله لك فيها، لكن الأكيد أنه إن كان لي عمر فسيكون هناك رسالة قادمة.. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..
ي ح ي ى

الرسالة العشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أحبك يا سارة..

أحبك وأنا آكل..

وأحبك وأنا أقرأ..

وأحبك وأنا أجلس مع أصدقائي..

وأحبك وأنا أتشاجر مع أمينة المزغودة..

وأحبك وأنا ألعن سيد الوكيل ذا الرائحة الكريهة..

وأحبك وأنا أقاوم إغواء صباح البنهاوي..

وعندما تسألني أمي: هل أنت جائع؟

أجيبها: نعم جائع، وأحب سارة. أنا يا سارة أحبك في جميع أحوالي

في صحوي..

ونومي..

وجدي..

وهزلي..

وسري..

وعلني..

تُرى أمازلت تذكرين تعارفنا الأول؟!

قبل أن تنحل عقدة لساني وتفقهي قولي

يومها بادرتي بالتحية وقلتِ (صباح الخير) مغلفةً بابتسامة سحرية

لم أصدق أن هناك (صباح الخير) بهذا الجمال.. فحدقت فيك كأبله ولم أرد. ظننت أنني أتجاهلك وغادرت مسرعة..

فوددت أن أناديك باكيًا (لا.. ليس الأمر كما تظنين.. إطلاقًا)

لا أذكر متى انحلت عقدة لساني فعليًا وانتقل حديثي معك من خيالي إلى الواقع..

لكن لابد أنك تأكدت الآن أنني على عكس ما كنت تعتقدين أعرف كلمات كثيرة غير (هه؟) التي لم أكن أنطق سواها كلما تحدثت معي. سارة أنا أراوغ.. أنا لست على مايرام يا سارة ولا جدوى من الإنكار لا أدري ماذا بي تحديدًا؟؟ هل بي شيء سوى أني أعيش في هذا الزمن؟؟ في هذا البلد! هل تذكرين حين

سألتيني عن السعادة، وأجبتك أنها هي تلك الفترات القصيرة التي يغفل فيها الحزن عنا لذا علينا أن نتعلق بها بشدة..

جلسات الأصدقاء والأحبة..

أو ما تبقى منهم جلستنا معًا في ظل شجرة الصفصاف العتيقة..

آه الآن تذكرت أن المجلس المحلي قطعها العام الماضي وزرع أخرى جديدة..

ليس لها ظل بعد..

قطعوها دون أن يتسنى لنا أن نودعها ونودع القلب الذي رسمناه علي جذعها حول اسمينا!

هل رأيت؟؟

الذنب ليس ذنبي إذن.. حين أضطر للاعتذار لأحدهم بأنه "ليس لدي وقت"، أفكر في هذه الأشياء التي تشغلني لهذه الدرجة أفكر أنني قديم..

قديم جدًا..

لا أنتمي لهذا العالم

ما معني أن يضيع المرء عمره ويكسب المال؟!

بل ما معنى أن يضيع عمره ولا يكسب المال ؟!

أعلم أن هذا كلام حزين وقاتم..

لكن فكري قليلًا

أليس هذا مايليق بالعالم الذي نعيش فيه؟!

بالبلد

بالزمن

بنا

دعيني أعتذر لك مقدمًا عما سيسببه لك هذا الكلام من ألم

لكن عذري الوحيد

والذي أتحجج به دائمًا

أنه كلامٌ حقيقي.. صادق وإن كنا لا نحب الكلام الصادق لا نحب الصدق عمومًا..

نحن مجتمع محافظ

متدين بطبعه

والحقيقة العارية تثير حفيظتنا

لذا نفضل الحقيقة المحتشمة

المغطاة أو المنتقبة كما يفضل البعض أن يقول.

سارة..

سامحيني سأكتفي بهذا القدر.

إلى اللقاء في رسالة قادمة.. هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الحادية والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أحبك، ثم أما بعد..

هل تعلمين أن أول من استخدم "أما بعد" هو الشاعر الجاهلي قُس (بضم القاف) بن ساعدة؟

أذكر أننا درسنا قصة حياته في الصف الأول الثانوي، وكان مدرس اللغة العربية ينطق اسمه (قِس) بكسر القاف، وكان هذا بدافع أخلاقي بطبيعة الحال، ثم لم يتورع في نهاية الحصة أن يسب أحد التلاميذ ويركله برجله بمنتهى العنف لأنه لم يجب على أحد الاسئلة.

لا أذكر متى فقدتني بالضبط؟ هل كان هذا في الثانوية أم بعدها؟ سألت صديقي إبراهيم المؤمن بالعلم إلى أقصى حد ذات مرة كيف لم يخترع العلم الحديث شيئًا يمكننا من العثور على الأشياء المفقودة بالطريقة نفسها التي نعثر بها على الموبايل عن طريق الاتصال عليه؟ لماذا إلى الآن لم تقم سامسونج أو سوني بإضافة زر إلى التليفزيون نضغط عليه فيطلق الريموت رنينًا معينًا لنعثر عليه بسهولة؟ وليس الريموت فقط، بل الأشياء الأخرى التي ننسي عادةً أين وضعناها كالمفاتيح والنظارات؟

ففاجأني أن هذا قد حدث بالفعل! عندها طرأ في ذهني سؤال آخر أشد أهمية..

ما رأيك يا سارة؟

هل يستطيع العلم أن يمنحنا زرًا يعيد لنا أشياءنا المفقودة الأخرى.. الأشياء الأكثر أهمية من المفاتيح والنظارات؟!
هل يمكن أن يمنحنا زرًا يعيد لليالي الشتاء الحزينة الدفء الذي لم يعد موجودًا إلا في أكواب القهوة والشاي؟!

هل يقدر أن يمنحنا زرًا يعيد لنا أحضان الآباء التي تسع الكون بأسره؟
زرًا يعيد لنا أصواتهم التي تمنح أرواحنا ظهرًا نحتمي به من خذلان الحياة؟
هل يقدر أن يمنحنا زرًا يعيد لنا القدرة على البكاء على صدور أمهاتنا بلا خجل؟ وزرًا آخر يمنحهن القدرة على تحمل هذا البكاء؟
هل يقدم العلم لنا زرًا يعيد لنا براءة الطفولة؟

الأحلام التي لم تكتمل؟

ارتعاشة النظرة الأولي؟

والهمسة الأولي؟

واللمسة الأولى؟

زرًا يعيد إلينا بعض البساطة؟

زرًا يعيد لابتساماتنا الذابلة بعض الحياة؟

زرًا يعيد لنا المعاني المفقودة لأي شيء مما يحدث حولنا؟

زرًا يمنحنا وطن. ..

أي وطن يا سارة

بشرط أن يكون وطنًا حقيقيًا

هل يمكن للعلم أن يمنحنا زرًا يعيد إلينا "الونس"؟

الونس الذي لا يوجد سوى في جلسات الأصدقاء

أو يعيد إلينا الاصدقاء أنفسهم؟

أيام كانت الضحكات مجانية.. تلقائية.. لا تحتاج جهدًا.. أيام كانت كلمات تبدو للآخرين عادية جدًا ومبهمة.. تقتلنا ضحكًا حتى نبدو في أعينهم مجموعة من الحمقى أو المجانين

أيام كنا نتسكع في الشوارع وتتقاذفنا المقاهي والأرصفة بلا هدف سوى أن نبقى معًا لأطول فترة ممكنة..

زرًا يعيد لنا الغائبين؟

الغائبين الذين لا يعودون أبدًا.. مهما أردنا ذلك

وإذا كان العلم لا يستطيع أن يعيد لنا أشياءنا المفقودة يا سارة، فهل يستطيع أن يصلح بعض ما أفسده؟

هل يستطيع أن يمنحنا زرًا يقوم بترميم القلوب المنهكة والأرواح المهترئة؟
هل يستطيع أن يمنحنا زرًا يزيل السأم الذي يستتر في الصباحات الرتيبة والمكررة؟

زرًا يزيل الخواء الداخلي الذي يعشش أسفل مقاعد السيارات، وداخل أجهزة المحمول الذكية، وبين ممرات الأسواق والمحلات، وعلى طرقات المدن النظيفة الممهدة؟

زرًا يزيل عنا الأقنعة والمشاعر المزيفة التي تطل من الابتسامات البلاستيكية اللزجة لموظفي الاستقبال وترحيباتهم الآلية الباردة؟
زرًا يزيل عنا الخذلان؟

والخيانة؟

والقلق؟

زرًا يزيل عنا الهوان؟

والاغتراب؟

والأرق؟
اغتراب الأزمنة والأمكنة والروح..

الأرق الذي يكسو كل الوسائد، ويختبئ تحت كل الأغطية

هل يستطيع العلم أن يمنحنا زرًا.. زرًا واحدًا

يعيد إلينا أرواحنا التائهة، أو يزيل عنا الرغبة الملحة في العثور عليها؟

زرا يعيدني إليّ ياسارة.. يعيدني إليّ؟

هل يستطيع؟؟

أعلم يا حضرة الباشا الضابط أن التغيير هو سمة الحياة منذ الأزل

لكنه لم يكن من قبل بهذه السرعة والقسوة والفظاعة ياسارة.. سارة أعلم أني أؤذيك بهذا الكلام، لذا سأكتفي بهذا القدر. وإلى لقاء في رسالة أخرى قادمة سأحاول أن تكون أقل بؤسًا.. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثانية والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

رغم أن الكلمات قد تبدو مبتذلة نسبة إلى مشاعري، إلا أنني مضطر أن أقول أنني أشتاق إليك..

وأني حين تغيبين أشعر أنني محبط كعلبة عصير وضعت يدك عليها، قبل أن تقرري لسبب غامض أن تأخذي جارتها.. يائس كالعلبة نفسها إذا اغتالتها أصابع زوجة سيد الوكيل الشريرة.. تعيس الحظ كزوج مدام عنايات موظفة شيءون الطلبة بالجامعة.. غريب كدرع دوري كسبه فريق الزمالك، أو كموظف نشيط في هيئة حكومية.. مهمل كقانون في وطن يدعي أنه كذلك.. منهك ككأس مقيدة إلى سبيل مياه في شارع عمومي.. متهالك كدفتر وفيات في السجل المدني.. تائه كمذيع لم تصله تعليمات الأجهزة الأمنية.. بائس كهذا الزمن..

كل ما أرجوه أن تكوني بجواري حين أشكو من الأرق كي تهزي لي سريري برفق تداعبي شعري بحنان وتغني لي أغنية بلحن قديم مثلي.. ثم تحكي لي حكاية خيالية عن أشخاص سعداء عن دنيا لا يكون فيها الحزن سرمديًا إلى هذا الحد.. حكاية يمكن لقصص الحب فيها أن تكتمل ولا تذوي وتذبل

هكذا ببساطة خلع العاهرات لملابسهن.. حكاية يمكن للأحلام فيها أن تصمد في وجه القبح قليلًا قبل أن تتحول إلى أشباح تنهشنا..

حكاية فيها وطن شرط أن يكون وطنًا حقيقيًا يا سارة.. وطن يبادل أبناءه الحب وطن يموت فيه الناس لأسباب أكثر منطقية من كونهم يمشون مسرعين وطن لا يشيخ فيه أبناء العشرين والثلاثين قبل أوانهم..

وطن يدفع فيه الظالم ثمن الظلم ويكلل فيه الخونة والمنافقون بالعار والفضيحة..

وإذا خفت من المبالغة فعلى الأقل لا تتركيهم في حكايتك يكرموا وينعموا ويحتفي بهم الناس

وطن لا يعتبر المطالبة بالحرية والكرامة محض جريمة تستحق أن يسحق مرتكبها بلا رحمة.. وطن لا تبح فيه أصواتنا لإقناع الناس أنه لا أمان بلا حرية، وأنه لا يمكن أن يتحقق استقرار على كل هذا القدر من الدماء وأن الآخرين لا يستحقون القتل لمجرد أنهم آخرون..

احكِ لي حكاية تظل فيها الأشياء الجميلة جميلة دون أن يثير هذا دهشة أحدهم..

حكاية لا يمتلك فيها القبح والابتذال تلك الوقاحة و الجرأة والقدرة على التباهي.. حكاية ينتصر فيها الخير ولو في معركة

وحيدة فقط حكاية مليئة بالأصدقاء كثير من الأصدقاء.. يتبادل فيها الناس الابتسامات والتحية دون انتظار المقابل لا يكون كل شيء فيها قابلًا للتسعير.. حكاية لا يرحل فيها الأحبة هكذا بلا إنذار.. رحيلًا مفاجئًا يخلف شعورًا بالذنب ينخر الروح

بلا وداع يليق بحبهم ويحتوي الحزن قبل أن يلتهم الفؤاد عن آخره..

حكاية لا يرحل فيها الآباء قبل أن يدلوا الأبناء على الطريقة المثلى للضياع من بعدهم.. حكاية لا يؤدي كل مفترق فيها إلى الوراء.. حكاية يكون فيها القسوة واللامبالاة والجشع والكراهية فعلًا غريبًا مستهجنًا

حكاية يكون فيها من الألم والمعاناة والقهر والحيرة ما يمكن احتماله واحرصي أن تكون حكايتك خالية من الخذلان تمامًا تمامًا يا سارة.. حكاية تكون فيها الحياة عكس كل ما في الحياة.. وإذا خلدت للنوم لا تتوقفي عن الحكي أبدًا.. فأنا لا أريد أن أستيقظ. أتذكر جيدًا يا حضرة الباشا الضابط أنني قلت في الرسالة السابقة أنني سأحاول أن تكون الرسالة القادمة أقل بؤسًا.. لكن من قال أن هذه هي الرسالة القادمة؟! دعك منه يا سارة أعلم أنك تتفهمين موقفي وتعذريني، وما الحب إذن إن لم يكن قدرة كبيرة على الفهم والمشاركة؟! وإلى لقاء في رسالة قادمة

ستكون كما يشاء لها الهوى.. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثالثة والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

سارة!

أتدرين ما مشكلتي الأكبر معك؟!

مشكلتي أن البشر اخترعوا اللغة لوصف الأشياء التي كانت موجودة حولهم، وأنت لم تكوني موجودة وقتها..

لو أنهم توقعوا أن مثلك سيسكن الأرض لكان أجدر بهم أن ينتقوا كلمة مثل ساحرة أو فاتنة ويحجبوها عن الناس.. يمنعوهم من تداولها حتى لا تبتذل أو تشوه إذا ما استخدمت لوصف شيء غيرك..

يحجزوها خصيصًا لك.. توضع تلك الكلمة في القواميس والمعاجم دون شرح ودون ترجمة، فقط صورتك.. إن معظم مشاعر الإنسان وأحاسيسه يا سارة تكون معقدة ومركبة، ونادرًا ما يشعر شعورًا أحاديًا أو بسيطًا.. فلا يوجد فرح إلا ويصحبه خوف أو قلق، ولا يوجد حزن إلا ومعه بعض الرضا أو القناعة.. ولكننا حين نستخدم تعبير أننا سعداء أو تعساء فإننا في الواقع نتحدث عن الشعور الأبرز بين العديد من المشاعر المختلفة، وفي العموم أري أن

الكلمات أصلًا وسيلة عقيمة للتعبير عن المشاعر.. فالكلمات مهما بلغت بلاغتها تكبل المعاني وتخنق المشاعر وتختزلها فمهما وصفت لك طعم الكمثرى، أو مدي روعة اللون الأحمر مثلًا فأنت لن تفهمي أبدًا ما أعني ما لم تتذوقي الكمثرى أو تري اللون الأحمر فعلًا، وحتى إذا تذوقتيها فليس هناك أي وسيلة لأتأكد أنك شعرت بالطعم نفسه الذي شعرت به. جميعنا نعرف الطعم الحامض، لكننا لا نعرف تحديدًا من الذي يشعر به.. من يتذوق الطعم الحامض، لذلك لكم تمنيت أن يتم انتقال المشاعر ومكنونات القلب باللمس.. أضع يدي على جبينك فتشعرين بما أريد قوله

شكوي

أنين

فرحة

حب..

شئ أشبه بالكهرباء مثلًا فاللمبه لو قلت لها 1000 فولت أو حتى مليون فولت فلن تضئ مهما كررت، بينما إذا لمسها سلك به 50 فولت فقط فستضئ الغرفة أكملها.

مشكلتي العويصة مع اللغة (أي لغة) أن المفردات التي تعبر عن المشاعر والأشياء المعنوية تستدعي في ذهن المتلقي المعني الناتج من

مخزونه المعرفي وخبرته الحياتية، وهي خبرة شديدة الخصوصية يستحيل أن تتماثل بين شخصين.. فعندما أستخدم مفردة (رقة) أو (عذوبة) فأنني في الحقيقة شعرت باحساس معين بداخلي ولم أجد سوي هذه المفردة للتعبير عن شيء أقرب ما يكون لما شعرت به، لكنه ليس هو الشعور نفسه بالضبط. أنت أيضًا عندما تسمعين مني تلك المفردة ستفهميني إلى حد ما، لكنك لن تعي شعوري تمام الوعي، لأن المخزون المعرفي لكلينا مختلف بالضرورة.. ميزة هذه الرؤية للعلاقة بين المشاعر واللغة يا سارة أنها تقنعك أن مشاعرك وأفكارك ستظل حبيسة قلبك وعقلك للأبد فتمنحك يأسًا مريحًا من محاولة فهم الآخر، أو محاولة جعله يفهمك. لا يعني هذا أنني سأتوقف عن الكلام أو إرسال رسائل لسارة يا حضرة الباشا الضابط

بالعكس..

فرسائلي لها هي الشئ الوحيد الذي له معنى في حياتي بعد أن أدركت متأخرًا كالعادة أن الحياة ليست كما تصورنا ليست كما حلمنا وليست حتى كما نعيشها الآن أدركت أنني أهدرت عمري في الانشغال بأمور لم تكن تستحق كل هذا العناء..

وأن الانشغال كان يجب أن يوجه إلى الأشياء التي لطالما اعتقدت أنها على الهامش، أو تلك التي اعتقدت أنها تافهة

وعبثية.
مأساتي أنني لاعتبارات كثيرة أهمها أن العالم من حولي كان دائمًا لديه التباس حقيقي في التفريق بين الصواب والخطأ، فقد كان على أن أخوض التجربة وحدي..

الأمر الذي جعلني حتى هذه اللحظة مازلت هناك، عالقًا في التيه والحيرة.. أنتظر شيئًا ما أظن أنه يجب أن يحدث. الغريب أنني أنتظر هذا الشئ ولا يأتي أبدًا.. كل خطوة تتحقق مرتبطة بخطوة تالية لها لا تحدث لا تحدث إلا في المستقبل والمستقبل بدوره يجرنا خلفه في سرداب طويل بلا آخر يتم فيه استنزاف الحاضر يتم فيه استنزاف الحياة أو ما تبقى منها.. كلنا ننتظر شيئًا ما
الواقعيون
المثاليون
والمتفائلون،
الكل ينتظر منقذًا ما.. مخلصًا.. أمر ما يحقق السعادة.. الراحة
شيئًا ما يبعث على الأمل في هذا العالم الذي تحكمه العبثية واللاجدوى.
متى يتحقق هذا الحلم الزائف؟ لماذا يأتي هذا الشئ أصلًا؟ هذا ما أخشى أن أبوح به حتى لنفسي.. أتذكر الآن المدرسة في الفصل وهي تسألنا عايزين تطلعوا ايه لما تكبروا؟؟ كنت الوحيد الذي لم

يجب على السؤال الوحيد الذي قال: لا أدري..أنا أصلًا لا أريد أن أكبر. هل كنت الوحيد الذي أجاب بأمانة أم أن إجابتي تلك كانت هي المشكلة؟ المأساة أنني عشت عمري كله "لا أدري" لا أعلم بالضبط ماذا عليّ أن أفعل لأحقق ما أريد ولا حتى أعرف من الأساس ماذا أريد..

لا بأس ياسارة لا بأس يا حضرة الباشا الضابط سأقول لكما كما قال مارك توين (على ما أتذكر)" سيقول البعض أنني كنت جيدًا وسيقول آخرين أنني كنت سيئًا، ولكن المؤكد أنني في النهاية سأموت ولم يفهمني أحدٌ على الإطلاق."

وإلى لقاءِ في الرسالة القادمة.. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الرابعة والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

لم تأتِ أمينة المزغودة اليوم لمساعدة أمي كالمعتاد، الملعونة اختارت يوم إجازتي لأنها متأكدة أني سأعوض غيابها، أمينة لديها ذكاء فطري لافت أو فلنقل مكر، لكن خفة ظلها المتناهية وقصر قامتها ونحافتها المرضية تقف حائلًا بيني وبين كرهها أو النفور منها، ورغم ميولها الشريرة الواضحة إلا أننا نكتفي ببعض المشاكسات التي غالبًا ما تنتهي بفوزها تلك اللئيمة. أشفق من الآن على المسكين الذي سيتزوجها. آلام الروماتيزم تعوق أمي عن القيام بأعباء البيت وحدها.. المرض شيء شرير وقاسي بطبيعة الحال، لكن أمي كأي مريض ترى أن الروماتيزم هو أكثر الأمراض قسوة في العالم. جربنا كل الأطباء والعلاجات لكن للأسف لايوجد علاج نهائي. قبل فترة نصحتها "عجايب" الغجرية ذات النظرات المخيفة باستخدام الحنضل، قالت أن عليها أن تشوي ثمرة حنضل حتى تصير طرية ثم تقسمها نصفين، وتربط النصفين إلى كعبيها ولا تزيلهما إلا بعد أن تشعر بمرارة الحنضل في حلقها. رفضت أمي بحزم استخدام هذه الوصفة، ولما ألححت قالت بلهجة حزينة: هي العيشة ناقصة مرارة يا يحيى.. طب ده أنا من يوم أبوك

الله يرحمه والمرارة ما بتفارقش حلقي، شوفلي حاجه تانية يا بني الله يرضي عليك.. تحسست حلقي وابتلعت لعابي بصعوبة وأنا أحاول تذوقه، ولم أتجرأ على الإلحاح عليها ثانية.. ولكن لأن المرارة قدر.. فلما اشتد عليها الألم وأتعبتها المسكنات، طلبت هي الحنضل بنفسها..

تحسنت حالتها بالفعل، لكنني لم أتوقف عن الرهبة والنفور من عجايب الغجرية. كنت أترنح أثناء سيري، ولا أقوى على فتح عيني من أثر قلة النوم، أيقظتني أمي في التاسعة، وطلبت مني شراء إريال للغسيل من عم جلال البقال، ثم وأنا على الباب قالت بصوت عالٍ: وهات بيبسي عشان البيبسي خلص. وصلت إلى عم جلال وأنا بين اليقظة والنوم، وقلت له ساخرًا: ستي بتقولك هات علبة اريال وازارة بيبسي كبيرة عشان البيبسي خلص. رد عم جلال ضاحكًا: البيبسي خلص؟؟ الله يرحم أبوك.. فين البت أمينة؟ فقلت له: عيانة. أحضر عم جلال الأغراض ثم قال: ادخل تعالى اشرب شاي معايا عشان تصحصح. لاحظت رغبته في الثرثرة فاستجبت له. مد يده بكوب الشاي الساخن، ثم بدأ يحكي.. حكى لي حكايات كثيرة عن القرية، وعن الماضي، وعن البركة التي كانت تعشش في كل ركن من أركان البلد. ثم ضحك وهو يكرر كلامي قائلًا: بقى البيبسي خلص! طب وايه يعني؟ ثم أخبرني أن محله آخر محل دخلته المياه الغازية في المنطقة، وأنه كان يرفض بشدة دخولها لمحله، ولما سألته لماذا قال بجدية أنه لم يكن يبيع في محله

سوى الأشياء المهمة والمفيدة. وأنه اضطر لبيع البيبسي فقط بعدما فتحت هناء زوجة محمد أبو أمين الغفير بقالة في الجهة الأخرى من القرية، وأحضرت فيها الشيبسي والبيبسي وهذه الأشياء الغريبة، وبدأت تسحب الزبائن منه، ثم تمتم قائلًا: بهايم.. أخبرني أيضًا أنه قديمًا لم تكن المياه الغازية تدخل البيوت إلا في المناسبات الكبيرة للضيوف المهمين، أو في حالة إصابة أحد أهل البيت بمرض شديد،

ثم حكى لي حكاية طريفة حدثت قديمًا مع الحاج أحمد الوكيل والد سيد الوكيل ذي الرائحة الكريهة أثناء شبابه.. كان أحمد الوكيل يعمل في شركة شحن في الإسكندرية، ولا يأتي إلى البلد إلا نادرًا. وذات يوم اتصل به أحد أخوته، وأخبره أن والده مريض جدًا ويريد أن يراه، فأتي مسرعًا. وبينما كان مقبلًا على البيت لمح أخته الصغرى قادمة من الجهة الأخرى وتحمل في يدها زجاجة "بيبسي".

ففزع فزعًا شديدًا وألقى حقيبته، وهرول ناحية البيت هاتفًا: يا ساتر يارب هي وصلت للكاكولا يابا!! ذلك أن أهل قريتنا لم يكونوا يلجأوا للبيبسي إلا إذا كان المريض في حالة متأخرة. ضحكت حتى كدت أسقط على الأرض بعدما سمعت هذه الحكاية، ثم قلت له: والله أنت عسل يا عم جلال. لكن الغريب أنه نظر إليّ بغضب ثم قال بحدة: والله ما أنت فاهم حاجة، قوم قوم يا يحي تلاقي أمك عايزة تغسل دلوقتي وبعدين ما ينفعش

تسيب البيت من غير بيبسي كده.. أرجو أن تكون حكاية أحمد الوكيل قد عوضتك عن بعض كآبتي في الرسائل السابقة يا سارة، وألا تكون قد أثارت شجونك كما حدث مع عم جلال. بالمناسبة كنت أفهم ما يرمي إليه عم جلال، لكنني كنت أيضًا في حاجة ملحة لأن أضحك. لم يعد في استطاعتي أن آخذ كل الأمور على محمل الجد يا سارة.. أصبح هذا أمرًا شاقًا إلى أقصى حد.

سأحكي لك أيضًا ماذا حدث بيني وبين أمينة عندما مررت لأطمئن عليها أثناء عودتي من دكان عم جلال. لكن دعي هذا للرسالة القادمة. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الخامسة والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

لا يوجد في العالم يا سارة من يجسد معنى السخافة قدر المدعو شريف الوكيل.. لو قابلت كائنًا مهجنًا من جينات كل السخفاء على مر التاريخ مجتمعين لكان شريف الوكيل أسخف منه أيضًا. بني آدم بشع.. دخل علينا محل عم جلال ضاحكًا ضحكته السمجة، وألقى السلام، ومد يده ليصافح عم جلال، فنظر له عم جلال باشمئزاز، وقال بكل ما أوتي من صلف: أنت هتصاحبني! عايز ايه؟ فأشار شريف إلى السجائر المرصوصة خلف عم جلال وقال: واحدة مارلبورو أحمر.

- مارلبورو أحمر يابن أحمد الوكيل؟؟ والله عال!! مفيش.

- ما هي وراك اهيه!

- متباعة.. يلا بقى اتوكل على الله عايزين نرش ميه.. ياباااي. غادرنا شريف وهو يحمل نفس الابتسامة المستفزة، فكاد عم جلال يصاب بجلطة من بروده وسماجته. وجود شريف مع عم جلال في المكان نفسه أشعرني بمدى سخافته وثقله. لا تعرف الأشياء إلا بأضدادها كما يقولون. لا يعرف أهمية الصحة إلا من ذاق

المرض..
ولا يعرف تفاهة الحياة إلا من اقترب من الموت أو وقف على حافته.
رغم خفة ظل عم جلال وقدرته العجيبة على مزج المزاح بالحكمة، إلا أنه سريع الغضب وملول جدًا، لا يستقر على حال مع أنه جاوز الثمانين على ما أعتقد – فهو لا يخبر أحدًا بعمره – إلا أنني قلما أجده ساكنًا. دائمًا يقوم بترتيب المحل، أو تنظيف الأرفف، أو رش المياه أمام المحل. دائمًا في حالة حركة.. ولما طلبت منه مرة أن يرتاح مراعاة لسنه، ابتسم وقال: بزهق يا يحي ربنا يكفينا شر الرقدة.
مشكلته أيضًا أنه لا يستطيع كتمان مشاعره، أو كما تقول امي دومًا: اللي في قلبه على لسانه. وهذا الأمر يسبب له كثير من المشكلات.
بسبب سرعة نفاد صبره فإنني أتجنب الصلاة بجواره، لأنه إذا أطال الإمام في أي جزء في الصلاة فإنه يتمتم بصوت مسموع بعبارات مثل: اللهم طولك يا روح.. أو الصبر من عندك يارب. وذات مرة أطال الإمام في دعاء استفتاح الصلاة، وظل صامتًا فترة طويلة قبل قراءة الفاتحة، فشرع عم جلال بقراءتها هو. وفي مرة أخرى جاء إلى مسجدنا شيخ جديد من الأوقاف، كنا في صلاة المغرب، وعندما شرع الإمام في القراءة وجدنا صوته سيئًا ومزعجًا وعاليًا جدًا لدرجة مؤذية، فقال له عم جلال – وهو في الصلاة –: وطي

صوتك.

ولما لم يستجب الإمام كررها، فلم يستجب أيضًا فما كان من عم جلال إلا أن قال بكل ثقة وهدوء: وطي صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير. وطبعًا في كل مرة أحضر هذه المواقف لا أقوى على كبح الضحك وأضطر لإعادة الصلاة، بينما هو متماسك كأنه لا يفعل شيئًا ذا بال. عندما تكلمت معه في هذا الشأن وأخبرته أنه هكذا تبطل صلاته، أخبرني أن هذه أدعية ولا شيء يمنع الإنسان من الدعاء في الصلاة، فلم أجادله خشية إثارة غضبه.

لكنه سألني: اومال كنت هتعمل ايه لو حضرت عمك إبراهيم الحسيني الله يرحمه؟! ثم أخبرني أن عم إبراهيم رحمة الله عليه كان عندما يجلس للتشهد ويصل للجزء الذي يقول فيه " كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم" أو "كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم" فإنه كان يشير إلى نفسه ويربت بكفه على صدره، وذلك في كل صلاة. لا أمل مطلقًا من حديث عم جلال لكنني كنت مضطرًا لتركه كي أمر على أمينة المزغودة وأوصل الاريال لأمي مبكرًا.

وقفت بمحاذاة مدخل البيت الطيني المتواضع وناديت: يا محمود. أطل محمود من الباب ثم التفت إلى الداخل وقال: ده الأستاذ يحي يامه.

سمعت دربكة وأقدام مسرعة داخل البيت ثم بعد دقائق فتحت أم

محمود

كانت ترتدي جلباب فضفاض من اللينو الازرق بأكمام طويلة ووردات حمراء على ذيله، وتضع طرحتها بلا اكتراث على رأسها. أفسحت لي المجال قائلةً: اتفضل يا أستاذ اتفضل.. معلش البت بعافية شوية النهاردة.. اتفضل أنت مش غريب. دخلت إلى الصالة الخالية تقريبًا من الأثاث إلا من حصيرة بلاستيكية ومنضدة علىها تلفزيون صغير يذيع مسلسل عربي حديث لا ينتبه إليه أحد. كانت عجايب الغجرية تهم بالانصراف حين دخلت فتجاهلتها وسألت عن أمينة فأشارت أمها إلى الغرفة. دخلت فوجدتها مستلقية على السرير باستسلام لا يليق بها فقلت مازحًا: مش لايق عليك الهدوء ده.. ازيك يا مزغودة؟ فأجابت بوهن: الحمد لله.

- مالك..عندك ايه؟

ردت أمها التي دخلت الغرفة فجأة: كت بتفرفر طول الليل.. حمى وترجيع بس مش عارفة مالها، والست عجايب الله يكرمها جبتلنا شوية أعشاب عشانها هغليهم وأنا بعملك الشاي أدركت مدى حماقتي عندما لمحت محمود يحدق في زجاجة البيبسي في يدي فمددت يدي بسرعة ناحيته قائلًا: حط دي في التلاجة يا محمود. فاختطفها محمود قبل أن تشكرني أمه قائلةً بطريقة بآلية: مكانش له لزوم خيرك سابق يا أستاذ. قامت الأم لتعد الأعشاب والشاي فهمست أمينة بصوت يكاد يُسمع: أنا مش عيانة!

أمي هي اللي بتقول كده عشان الولية عجايب جايبالي عريس وبسلامته مش عايزني أشتغل في البيوت.

حدقت فيها محاولًا استيعاب الأمر ثم سألتها: أكلم أمك؟؟ فقالت بدهاءٍ: لأ مش دلوقتي دي هتموتني لو عرفت أني قلت لك.

ثم أضافت: أنت تقولها أنا هودي أمينة للدكتور.. وتصمم.. لما تعرف يبقى عرفت من الدكتور. ثم دخلت أمها فجأة فسكتت وبدأت تتأوه بمكر.

بادرت الام قائلًا: أنا لازم أوديها للدكتور يطمنا عليها، هعدي عليها بالليل أخدها.

حاولت المراوغة والتهرب لكنها استسلمت في النهاية أمام إصراري. شربت الشاي ثم عجلت الى أمي لترضى. وفي المساء استعرت سيارة إبراهيم صديقي الثري، ومررت على أمينة التي كانت في منتهى السعادة وهي تجلس بجواري. وسأحكي لك بالطبع مادار بيننا. لكن اسمحي لي أن يكون ذلك في الرسالة القادمة. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السادسة والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

سارة..

أنا لا أجيد التعبير عن الحب، لكن كل ما أعرفه أنني منذ رأيتك منذ أحببت قلبي من رقاده صرت خاليًا من كل رغبة إلا الرغبة في إسعادك منزهًا عن كل غرض إلا محاولة إرضائك متمنيًا بكل صدق أن أتلاشي بك أن أذوب فيك أن أسكنك وتسكنينني قابلًا بكل رضي أن أموت وتعيشين أحزن وتسعدين أتألم وتفرحين منذ رأيتك صار العالم بأسره لاشئ إطلاقًا سواك منذ رأيتك أمسيت أسمع من صمتك أعذب كلمات الحب وأري في وجهك المشرق جمال الدنيا ورقتها وألمح في عينيك حياتي وعمري وأعشق كل ما تفعلين. كل عام وأنتِ بهية يا سارة،كل عام وأنتِ كما كنت دومًا كل الحب وكل الرقة وكل الجمال وكل السحر وكل الحياة.

بعد عدة أيام يحل عيد ميلادك. لا أستطيع – كالعادة – أن أصف لك مدى امتناني لهذا اليوم، ولا أدري كيف كنت سأتحمل حياتي لولاه..

وسأقول لك كما اعتدت في مثل هذا اليوم من كل عام أنكِ كنتِ دومًا بالنسبة لي وعلى نحو ما سببًا وحيدًا لاستمرار الحياة

لا أكاد أرى شيئًا جميلًا في حياتي إلا وأجدك تسكنين فيه.. الفرق بينك وبين إله اسبينوزا أن أنه يحل في كل الأشياء بينما أنتِ تسكنين فقط في الأشياء الجميلة..

تغلفين رائحة المطر تنسابين من نظرات الفتيات الصغيرات المفعمة بالبراءة والأمل تتجدلين مع ضفائرهن تطلين من خلف كراريسهن اللاتي يحتضنها وهن ذاهبات للمدرسة صباحًا ترفرفين مع أجنحة السنونو في هجراته السنوية فتمنحين ريشاته ألوانها البراقة البديعة تصدحين مع تغريد الكروانات وهديل الحمامات و زقزقة العصافير حين تنادي على نور الشمس قبيل الشروق تختبئين خلف أغصان الشجر وداخل أزهار الأوركيد والفيولا والياسمين تنسدلين مع ثمار المانجو والبرتقال واليوسفي في حديقتنا الخلفية تمرحين بين صفحات الروايات الرومانسية تتقافزين بمرح بين نجمات السماء في ليال الصيف الرائقة وتتسللين مع نسماتها العليلة فتمنحين الحياة ما تحتاجه من سلام وطمأنينة وحب..

سارة! من بين كل التعريفات الفلسفية للجمال فإن أكثر تعريف مس قلبي هو ذلك الذي يقول "إن الجمال هو كل ما لا يحتاج

زيادة ولا يبتغي نقصان" لا أذكر أين قرأته أو من قائله ربما أكون قد صغته بنفسي فهتفت حين رأيتك " سارة هي كل ما لايحتاج زيادة ولا يبتغي نقصان" لكن رغم كل هذا تظل الكلمات عاجزة عن وصف فتنتك ربما تكون حالة البلاهة التي تنتابني حين أكون في حضرتك هي أبلغ تعبيرعن سحرك. أعلم أنك تتحرقين شوقًا لمعرفة ما دار بيني وبين أمينة ياسارة، لذا هيا نعود اليها. المزغودة كانت في منتهى السعادة ونحن في السيارة حين وصلنا المدينة طلبت مني أن أدعوها على العشاء. أثناء العشاء طلبت مني ألا أفاتح أمها في شيء ثم قالت بأسى: سأتزوجه. لم أفهم وقلت بدهشة: لازم تستني لما تكبري عشان تختاري صح. ردت بتلقائية عجيبة: الفقرا ما بيختاروش يا سي يحي اللي بيتحط قدامهم بياخدوه.. أنا أول مرة ف حياتي أدخل مطعم يا سي يحي! ثم أكملت: أمي وأخواتي محتاجين الفلوس، وهو كتر خيره قال أنه هيتكفل بينا. قلت كممثل تلفزيوني فاشل: الفلوس مش كل حاجة.

ابتمست وردت بسخرية خفيفة: لما تكون بتشوف اللحمة مرتين في السنة وتروح المدرسة مشي عشان مش معاك أجرة السكة وتقضي السنة بهدمتين ساعتها بتبقى الفلوس كل حاجة.. اوعى تكون مصدق أن مفيش حد بيبات من غير عشا ياسي يحي احنا ياما نمنا من غير عشا.. يلا بقى عشان أمى هتقلق. في طريق العودة كنت شاردًا أفكر في حديث أمينة. كيف لفتاة في عمرها

أن تقول مثل هذ الكلام؟! هل أخطأت عندما كنت أعيرها روايات محفوظ وماركيز والبساطي أم أن المعاناة والفقر يصنعان الحكمة؟!

قبل أن نصل قررت أن أكون إيجابيًا، وألا استسلم لمنطقها الانهزامي، فحدثتها عن الأمل والحلم والطموح والصبر. حدثتها عن أشياء كثيرة لا أؤمن بها، فبدا كلامي باهتًا وغير مقنع، لكنني في النهاية وعدتها أن أبحث لها عن عمل يوفر لها دخلًا معقولًا ويسمح لها بالاستمرار في الدراسة وتأجيل الزواج إلى حين.. ووعدتني أن تقنع أمها وتنتظر. فاتحت إبراهيم في الموضوع وأنا اعطيه السيارة فوعدني أن يمنحها فرصة في شركة والده. أنا سعيد يا سارة، سعيد جدًا. أولًا لاقتراب عيد ميلادك، وثانيًا لأنني استطعت أن أساعد أمينة وأنقذها. كنت أود ألا تنتهى هذه الرسالة، فقلما شعرت بهذه السعادة، كما أن لدي الكثير من الأشياء لأحدثك عنها، لكنني أخشى أن يصاب حضرة الباشا الضابط بالملل، وأنتِ تدركين العواقب الوخيمة لذلك. لذا دعينا نؤجل الحديث للرسالة القادمة. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السابعة والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

يقولون أن منتهى الشئ هو الحد الذي لا يمكن للشئ أن يزيد بعده..
وأنتِ ياسارة منتهى الحب ومنتهى الجمال ومنتهى الرقة ومنتهى الروعة ومنتهى الحياة..

سارة! ما رأيك؟

أفكر منذ فترة في اعتناق الوجودية رغم أنني لم أفهم شيئًا إطلاقًا من رواية الغثيان لسارتر.. " قوانين الاحتمالات تنطبق على البشر بصفة عامة كنوع أما فيما يخص الإنسان الفرد فكل شيء قابل للحدوث" أغوتني تلك الفكرة بجنون.. سلبت لبي.. قد يكون احتمال الإصابة بأمراض القلب في مصر هو عشرة بالمائة، لكن لاشئ إطلاقًا يمنع أن أكون أنا أو حضرة الباشا الضابط ضمن هذه العشرة بالمائة. أحمق من يظن الدنيا تمشي وفق خطة محكمة أو أن هناك قانونًا يحكم أي شيء يا سارة.. تتفوقين في الدراسة لكن ابن العميد هو الذي يتم اختياره كمعيد، تخلصين في عملك ثم يحصل على الترقية أشد زملائك قدرة على النفاق والانبطاح ولعق الاحذية، تتبعين التعليمات وتحافظين على النظام وتمشين

بجانب الحائط، ثم يأتي شاب أرعن مستهتر يحطم الحائط ويدهسك بسيارته ثم لا تتم محاسبته ولا حتى توبيخه لأنه من طبقة "أنت مش عارف أنا ابن مين". لا شيء مضمون البتة.. مثلنا كمثل ريشة "فورست جامب" تحملنا الريح في كل اتجاه وفي أي اتجاه، ولا توجد وسيلة لمعرفة المكان أو الزمان الذي ستتركنا فيه.. فكرة واقعية ومخيفة يا سارة..

بالأمس بعد صلاة المغرب كنت أقود دراجتي على الطريق بين قريتنا وبين المدينة كان هناك رجلًا أربعينيًا يرتدي جلبابًا يسير خلفي بدراجة تشبه دراجتي إلى حد كبير.. تخيلت أنني سمعت رنين هاتفي فتوقفت لأتأكد.. لم أجد شيئًاسبقني الرجل ببضع خطوات، أتت سيارة مسرعة صدمته في الموضع الذي كان من المفترض أن أكون فيه تمامًا، طار في الهواء، هربت السيارة، سقط، بقعة دم هائلة تلتهم الأسفلت، وأنا مذهول لا أصدق. بعد دقيقتين.. توقفت سيارة قادمة من الاتجاه الآخر، نزل ركابها، اجتمع الناس، أعلنوا موت الرجل، وأنا مازلت مذهولًا.. لا أصدق.

مات ؟!.. بهذه البساطة؟؟ هل كان على استعداد؟؟ هل صلى المغرب؟؟

ترى إلى أين كان يتجه؟؟ هل كان يعلم أنها رحلته الأخيرة؟؟ هل ودع أولاده كما يجب؟؟ هل شرح لزوجته الأمر الذي كان

يؤجله منذ شهور قبل أن يخرج؟؟ هل كان عليه أن يزور أمه فور طلبها له و ألا يؤجلها للغد؟ هل أدرك أنه كان أحمقًا حين قال لها "الدنيا ماطارتش"؟؟ هل صلى المغرب؟

هل شغلته الأسئلة التي سيتلقى إجابتها ابتداءً من هذه اللحظة؟ ما فكرته عن الزمن الآن؟؟ هل قرأ لسارتر؟؟ هل سمع بنظرية الكوانتم؟؟ هل يدرك الفرق بين الشعر العمودي والتفعيلة وقصيدة النثر؟ هل صلى المغرب؟؟

هل احتفل بفوز الزمالك بالدوري؟ هل قام بتنزيل نسخة الويندوز الجديدة؟ ماذا كان رأيه في مسلسلات رمضان الماضي؟ هل صلى المغرب؟

كيف سيعلن أحمد موسى وفاته؟؟ هل سيعتبره من المواطنين الشرفاء ويتظاهر بالحزن عليه؟؟ أم سيعتبره إرهابيًا أو طابورًا خامسًا يركب دراجته ويعرقل بها طريق السيارات التي تقود الشعب نحو التقدم والازدهار والهاوية؟ كيف تلقى خبر القبض على الراقصة برديس؟؟ هل أساءه توجيه تهمة التحريض على الرذيلة لها بدلًا من توجيهها للحكومة؟ ما السبة التي قالها عندما سمع تصريحات مدير كلية رؤساء الجمهورية (الكلية الحربية سابقا)؟ هل صلى المغرب؟

هل نظر في عيني السائق المتهور وهو في الهواء؟؟ هل تألم؟؟ لماذا لم يصرخ؟؟ بماذا كان يفكر أثناء سباحته في الهواء؟؟ هل شغله

مصير دراجته؟ أولاده؟ عمله؟ جلبابه مرفوع إلى صدره! هل كان يخشى عليه أن يتلوث بالدم؟؟

لم أقترب من الموت إلى هذا الحد من قبل يا سارة.. هذه المرة كان قريبًا جدًا مني، نظرت في فوهته المظلمة سحيقة العمق وارتجفت. كان يحوم فوقي طول الوقت.. كان يعلم أنه سيقبض روحًا ما في هذا الموقع.

ترى هل ارتبك حينما وجد أننا اثنان في المكان نفسه؟ اقترب مني. ترى هل بدأ بي أم بالرجل الآخر؟؟ صار في مواجهتي تمامًا. نظر في عيني بتفحص ثم نظر في أوراقه. ترى كيف حسم الأمر؟؟ هل هو الجلباب ؟؟ هل كان موضحًا في أوراقه أن العميل يرتدي الجلباب ؟؟ هل هو السن؟؟ ألأنه كان أصلع؟؟ هل كان بالأوراق صورة للعميل؟؟ ماذا لو لم تكن واضحة بما يكفي؟؟ هل كنت أنا المقصود وأنقذني رنين الهاتف المتوهم؟؟ هل تنقذ الأوهام الإنسان؟؟ هل ترديه؟؟ ألم أقل لك يا سارة لا شيء مضمون البتة..

لا شيء يسير وفق الخطة أبدًا..

حتى هذه الرسالة لم تسر كما كان مخططًا لها..

لم أنجح في الحفاظ على معدل السعادة والرومانسية في رسائلي.

لعل هذا يثبت ما قلته لك سابقًا من أن الحزن هو أكثر المشاعر التصاقًا بالإنسان وأكثر الأحاسيس أصالة في الحياة وكل ماعداه هي مشاعر ثانوية مؤقتة تظهر وتختفي، بينما شجرة الحزن راسخة تضرب جذورها في أعماق الروح أصلها ثابت وفرعها في السماء.

كل المشاعر سوى الحزن يا سارة كالزبد، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما الحزن فيمكث في الأرض سوف لن أعتذر هذه المرة عما جاء بالرسالة، لا أريد أن أكون مبتذلًا.

المهم أنك تتفهمين وتعذرين.

يقول سارتر أن الجحيم هو الآخر. وأقول أنا أن الجحيم هو حضرة الباشا الضابط الذي يريدني أن أكتب رسائلي إلى محبوبتي بطريقة تليق به هو.

إلى اللقاء يا سارة في رسالة قادمة. هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثامنة والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر كالمعتاد..

كنت سأكتب الجملة السابقة كالتالي:

(مساؤك سكر كما يليق بك)

لكنني فكرت أن لاشيء يليق بك في هذه الدنيا..

الدنيا.

أنت لا تنتمين إلى هذا العالم يا سارة..

أنت..

إذا كنا نحن نعيش داخل كهف أفلاطون، فأنت تعيشين هناك بالخارج في عالم المثل والكمال المطلق،

مذ رأيتك يا سارة لم أعد أعرف معنى الوحدة،

أصبحت تسكنينني طوال الوقت،

أعيش بك

ومعك

ولك.

في أجمل مشاهد الفيلم العبقري (الحاسة السادسة) يجلس الطبيب النفسي (البطل) مع الطفل المريض الذي يشاهد الأموات ويسأله: متى تشاهدهم؟؟ أثناء النوم؟؟

فيجيبه الطفل بمنتهى التأثر: طوال الوقت.

وفي نهاية الفيلم يكتشف الطبيب أنه شخصيًا ميت منذ سنوات وأنه أحد الأموات الذين يشاهدهم الطفل طوال الوقت في مفاجأة مرعبة وعبقرية تجبر المشاهد بعد نهاية الفيلم أن يتحسس جسده ويتساءل أتراني مازلت حيًا بالفعل أم أنني ميت منذ أمد ولا ينقصني سوى اكتشاف ذلك؟!

مذ رأيتك وأصبحت مقياس الأنوثة والجمال بالنسبة لي

فأقول هذه شعرها أقصر من سارة وتلك عيونها أضيق من عيون سارة

قبل يومين كنت أشاهد فيلم (بنتين من مصر) الذي يعالج مشكلة العنوسة

الفيلم جميل ومؤثر قصةً وإخراجًا وتمثيلًا والعنوان نفسه شديد الإيحاء..

بنتين من مصر.. ألم يكن هذا اختبارًا كافيًا؟؟

ماذا لو كانتا بنتين من ألمانيا مثلا؟؟ أكانت العنوسة تسبب لهما كل هذا الألم؟؟

ذكرني الفيلم بزميلتي في العمل السابق، الآنسة قمر.. هكذا تحرص على تقديم نفسها مع الضغط على حروف كلمة (الآنسة)

كانت في أوائل الثلاثينات عندما التحقت بالعمل قبل ثمان سنوات

فتاة عادية جدًا ليست بالجميلة وليست بالدميمة، ليس لديها ما يمنع من الزواج، لاشيء سوى النصيب،كانت الآنسة قمر تتظاهر طوال الوقت أنها على ما يرام وأن تأخر الزواج لا يقلقها، وكانت طوال الوقت تفشل في ذلك.

عندما كان يصلنا خبر عن خطبة فلانة أو علانة كانت تجاهد لإخفاء مشاعر الغيرة والحرج لكنني كنت دومًا ألمح بوضوح ذلك التساؤل يطل دائمًا من عينيها.. ما الخطأ؟؟

ما هو العيب الخطير الذي يجعل الرجال يتخطفون كل البنات من حولي ويتجاوزنني؟؟

كانت متوترة ومحتارة..

تارة تتحجب وتارة تخلع الحجاب..

تارة تتباسط مع زملاءها الرجال وتارة تنزوي وتضع الحدود والقيود

جربت كل شيء..

لكن لم يفلح أي شيء.

في الوقت الذي كان يلومها الناس فيه،كنت أنا أشفق عليها وأتعاطف معها وأدعو لها في صلواتي..كنت أدرك مدى هشاشتها وضعفها..كنت أثق أنها ليست فتاة سيئة أو ذات سلوك مشين.. غاية ما في الأمر أنها تتمنى أن تتزوج.. ليس حبًا في الزواج.. بقدر ما هو هربًا من نظرات جاراتها التي تخترقها في الذهاب والإياب، هربًا من ابتسامات زميلاتها اللزجة وألسنتهم التي تنهشها ليل نهار

تتمني أن تتزوج لأنها لم تعد تتحمل شعور أمها بالخجل كلمها سألها أحدهم عن الآنسة قمر، ولم تعد تطيق سماع جدتها وهي تمصمص شفاهها كلما مرت من أمامها الآنسة قمر، ولم تعد ترغب في سماع هذا اللقب الكريه كسبه (الآنسة قمر).

كنت أشعر بكل ما تعانيه قمر، وأدرك أن لا حل لها سوى بالزواج، لأنها كبطلتي الفيلم. لأنها من مصر.. لأنها تعيش في مجتمع يحمل المرأة وزر كل ما يحدث لها.. إذا تحرش بها رجل فهي المخطئة.. وإذا فاتها قطار الزواج فهي المخطئة.. وإذا طُلقت بعد الزواج فهي المخطئة..

كانت هي أيضًا تدرك كل هذا فلم تبدد ألمها في الشكوى والتظلم والندب وكنت أود أن أخفف عنها.. أن أهون عليها وأساعدها..أن أخبرها أن الحياة الناقصة والفرص الضائعة أفضل من الحياة المكتملة وتحقيق الأهداف..

الفرص الضائعة أجمل وأكثر إثارة لأنها تترك الحرية للخيال، أما الأهداف فمحددة النهاية ومكتملة وما يكتمل يفقد جماله ويذوي ويذبل.. الحب يكتمل بالزواج فيذبل، والشوق يكتمل باللقاء فتكتشف أن من اشتقت إليه ليس كما تصورته، والأحلام تكتمل وتتحقق فتصبح أبشع من الواقع، الجمال والإثارة يختبئان فقط في القصص الناقصة والأحلام غير المكتملة والأهداف التي لا نصل إليها أبدًا. الجمال والإثارة يختبئان في الفرص الضائعة..

سارة لا أخشى على حبنا شيئًا سوى الاكتمال يا سارة..

لكن دعينا نتوقف عن الحديث عن الآنسه قمر، وننهي هذه الرسالة الآن قبل أن أتفوه بكلمات قد أندم عليها، وإلى لقاء في رسالة قادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة التاسعة والعشرون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

لو أنك الآن معي.. بجواري، لو أن لي قوة أو آوي إلى حضنك الدافئ الرقيق، تعبت يا سارة..تعبت من كل شيء..

أنهكني البعد، اشتقت لتلك القشعريرة التي تسري في أوصالي حين تنظرين إلي بعينيك الساحرتين. اشتقت لجنيات الهيليوم وحدائق البهجة والفرح التي تحملني إليها ابتسامتك العذبة المذهلة.

كيف لمرآتك وفرشاة شعرك وأقراطك أن تكون معك وأنا لا، لا يحق لشئ أن يكون أقرب لك مني ياسارة.. أبدا.

ليلة أمس استبد بي الشوق فخرجت أهيم في طرقات قريتنا، حملتني قدماي حيث عم جلال، جلست بجواره مطرقا إلى الأرض لا أتكلم،

فبادرني: الله يلعن أبو الحب اللي مبهدلكوا ده ياخي.. مش ناوي تفوق بقى.

قصدك مش ناوي تموت.

مش فارقه كتير.

كان يستعد لإغلاق المحل فغادرته وعدت إلى المنزل.

في الراديو كانت المذيعة التافهة تسأل المتصل: ماذا ستفعل إذا ارتديت طاقية الإخفاء؟

أجاب الرجل: سأذهب إلى أكبر بنك وأحصل على مبلغ كبير وأشتري أحدث سيارة وكل ما أرغب فيه.

هل تعلمين بماذا ردت المذيعة التافهة ؟؟

بعد ضحكة ساذجة قالت له: ولكن الطاقية ستخفيك وحدك ولن تخفي النقود فكيف ستخرج؟؟

أما أنا فأنت تعلمين جيدا ما سأفعله بطاقية الإخفاء يا سارة ولا داعي للإفصاح.

أدرت المؤشر فإذا بمذيع آخر أكثر تفاهة يسأل المستمعين: ما السعادة؟؟

أجمع معظم المتصلين يا سارة أن السعادة في المال والقليل قالوا في الزواج والاستقرار.

لا أدري! هل أصبت مؤخرا بجنون العظمة أم أن الناس قد أصبحوا فعلا مبتذلين إلى هذا الحد؟

لم يمتلك أحدهم الشجاعة ليعترف أنه لا توجد سعادة بالمعنى الذي يروج له ذلك الأبله. ليعترف أن السعادة ما هي إلا حالة

استثنائية تؤكد القاعدة وتثبتها، كل الذين ذكروا أسباب السعادة ذكروا الأشياء التي يفتقدونها، لن تجدي أحد الأثرياء يقول إن السعادة في المال.. كما لن تجدي أيا من المتزوجين يقول: إن السعادة في الزواج والاستقرار، السعادة يا سارة قد توجد في أي شيء إلا الشيء الذي نمتلكه... السعادة تقترن بكل الأزمنة إلا الحاضر..

حينما كنا أطفال كنا نظن السعادة تنتظرنا هناك في المستقبل بعد أن ننتهي من أعباء المدرسة وسخافة المذاكرة

فتمنينا أن نكبر، وحين كبرنا.. حين كبرنا تألمنا مرتين، مرة لأننا كبرنا.. ومرة لأننا تمنينا أن نكبر.. واكتشفنا أننا خلَفنا السعادة وراءنا (هل هي حقا وراءنا؟)

حينها أصابتنا نوستالجيا لعينه تسحبنا بخيط من لهيب إلى الماضي، حيث الطفولة.. حيث البراءة.. حيث كان يمكننا أن نمنح أنفسنا بالكامل لما نحب قبل أن تمزقنا الاهتمامات والطموحات والأوهام.. قبل أن يستولي علينا التوتر والقلق.. القلق من المجهول.. من اللا شيء.. ومن كل شيء. أتدرين ما المشكلة يا سارة؟

المشكلة والمأساة أننا لا نلعب في قصة حياتنا دور البطل ولا السنيد ولا حتى الكومبارس بل نقوم بدور المشاهد.. المشاهد الخامل الكسول الذي لا يعجبه الفيلم ولا يجرؤ على تغيير المحطة.

قطعه من الخشب تطفو بلا إرادة منها فوق نهر ثائر يحملها إلى حيث لم ترغب يوما. شجرة عتيقة تتساقط وريقاتها عنها دون أن تتمكن من استبقائها قليلا أو السقوط معها. وكلما مر بها شخص قطع غصنا من أغصانها ليستدفئ به ويتركها وحيدة وعارية، تعاني من الفقد والوحشة والخذلان

ماذا عنك يا حضرة الباشا الضابط؟ ما الشئ الذي يسعدك أكثر؟

قتل الأحرار أم اغتيال أحلامهم؟؟ تعذيب الأبرياء بالكهرباء أم بالتعليق من الأرجل؟؟ تدمير الوطن وفق خطة محكمة ومملة أم وفق أحداث عشوائية مليئة بالإثارة والتشويق؟؟

ما رأيك أنت يا سارة؟؟ ما هي إجابة حضرة الباشا الضابط التي تتوقعينها؟؟

سأتركك تفكرين في الإجابة على وعد بلقاء في رسالة قادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثلاثون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

تقول الست –طيب الله ثراها–:

يا حبيبي.. تعالى وكفاية اللي فاتنااا هو فاتنا يااا حبيب الروووح شوية ؟!

هات عينيك تسرح في دنيتهم عنيا..

هات إيديك ترتاح للمستهم إيديا..

يا حبيبي تعالى.. يا حبيبي تعالى..

أين أنت يا سارة؟

ولماذا لا تأتي بعد أن بح صوت الست وهي تشدو بكلمات الرقيق أحمد شفيق كامل الذي كان يحب جارته ذات الأصول الارستقراطية حبًا عفيفًا من طرف واحد جعله يكتب بعضًا من أجمل و أرق ما غنت أم كلثوم.

عاش أحمد شفيق كامل ومات ولم يتواصل مع حبيبته بل لم تعرف من الأساس أنه يحبها وأنها ملهمته وبطلة أغانيه العاطفية

التي بلغت حوالي المائة، ولكن بهذه الحال الباعثة على الأسى هل يمكن القول أنه عاش فعلًا؟

سارة..

لماذا أنت لست معي الآن؟

هذا هو السؤال الجدير بالطرح وليس ذلك السؤال العبثي البديهي الذي تصرين على تكراره يا سارة!

أيسأل الإنسان لماذا يأكل؟ لماذا يتنفس؟

إن سؤالك هذا يذكرني بسؤال مراسلة قناة دريم الغبية لصديقي خالد الشرقاوي في ثورة يناير..

لماذا تثورون؟؟

هكذا سألت بكل ما أوتيت من غباء،

قاوم خالد رغبة ملحة في ركلها وأجاب بمنتهى الغيظ: بعد كل الخراب والدمار اللي في البلد جايه تسألينا ثورنا ليه هو فيه بيت في مصر ما فيهوش مريض سرطان أو كبد أو فشل كلوي؟؟ هو فيه بيت في مصر مفيهوش شاب عاطل أو متغرب؟؟ هو فيه مصلحة بتتقضي في مصر غير برشوة أو بمرمطة وقلة قيمة؟؟

بدل ما تسألينا احنا ثورنا ليه اسألي الناس اللي قاعدة في بيوتها واحنا هنا بنموت قاعدين ليه؟؟

لم يذع التقرير بطبيعة الحال.

ملحوظة: لا تجهد نفسك بالتحري عن خالد يا حضرة الباشا الضابط فقد استشهد بعدها بعدة أشهر في أحداث مجلس الوزراء.

لا تبتئسي هكذا يا سارة فأنا لست حزينًا على خالد كما تتصورين بل على العكس أنا فخور به فقد عاش حرًا وشجاعًا ومات بطلًا مرفوع الرأس.

صدقيني يا سارة أنا لا أتهرب لكن مثل هذا السؤال ليس له إجابة.

هل أستطيع القول مثلًا أني أحبك لأنك نقية كقطرة مطر أبت الهطول لأن السماء أنسب لها؟ أم لأنك بريئة كزهرة تفتحت للتو؟

هل أحبك لأنك رقيقة كهمسة؟ كنسمة صيف؟ كمناجاة؟ أم لأنك وديعة كابتسامة رضيع؟ هل أحبك لأنك تبعثين في روحي الطمأنينة والبهجة كركعتي فجر؟ أم لأنك صادقة كدعاء أم لأبنائها؟ هل أحبك لأنك طازجة كرائحة الأرض بعد المطر؟ أم لأنك شهية كرائحة الخبز الساخن؟ هل أحبك لأنك دافئة كحضن؟ كتنهيدة؟ أم لأنك سخية كغصن لم يتعلم بعد كيف يقبض كفيه؟ أم تراني أحبك لأن كل تلك الإجابات قد تليق بك لكنها لا توفيك قدر سحرك؟

لا أدري..

الحب سر مقدس يا سارة لا تُدرك دوافعه ولا أسبابه، وإن أُدرك لم يعد حبًا أو بالأحرى هو لم يكن من البداية. لذا أرجو أن تكفي عن تكرار هذا السؤال لأنه يحمل في طياته اتهام مبطن لحبي لك حتى ولو لم تقصدي.

حسنًا..

سأتركك الآن لأني أشعر برغبة شديدة في النوم حتى أنني اشعر أن فمي سيتمزق من كثرة التثاؤب (هااااوم)

لا يا حضرة الباشا الظابط أنا لا أكذب.

صحيح أن اليوم إجازة يا سارة لكنني استيقظت مفزوعًا في الرابعة فجرًا على أثر طرقات عنيفة على باب المنزل ولم أذق طعم النوم من وقتها.

أما عن هوية الطارق والموضوع الذي دعاه لزيارتي فجرا فدعي (هاااوم) ذلك للرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الحادية والثلاثون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أتعلمين؟

كلما حاولت تغيير افتتاحية الرسالة لا أجد ما يليق بك فأعود مضطرًا لنفس الافتتاحية، اليوم مثلا فكرت أكتب (مساؤك كما تشائين) لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة.

أحيانًا كثيرة لا يعرف المرء ما الذي يريده بالضبط؟ ماذا عليه أن يفعل تحديدًا؟ ما الذي يزعجه؟ وما الذي يسعده؟ أحيانًا كثيرة لا تكون حرية الاختيار شيئًا جيدًا ويحتاج المرء لمن يأخذ بيده، يدله.. يهديه..

الاختيار هو ابتلاء البشر، نكبتهم.. مأساتهم.. وكان الإنسان ظلومًا جهولًا.

أتعلمين؟

مثلي ومثل الدنيا كشخص يلعب لعبة الكراسي الموسيقية، إن لم يجد كرسيًا ليجلس عليه يحزن لأنه خسر وخرج من اللعبة، وإن وجد كرسيًا وجلس عليه يحزن أيضًا لأن لاعبًا آخر خسر وخرج من اللعبة.

في رباعيات جاهين رباعية عبقرية تقول:

إيش تطلبي يا نفس فوق كل ده

حظك بيضحك و أنتي متنكده

ردت قالت لي النفس: قول للبشر

ما يبصوليش بعيون حزينة كده

هذه الرباعية تلخص علاقتي بالدنيا.

سارة..

اشتقت لنظرتك المدهشة المندهشة كأنها ترى الأشياء للمرة الأولى.. اشتقت لابتسامتك التي تجعلني أذوب وانصهر وأتبعثر وأتطاير وأتلاشى وتجعلني أعيش.

هل تدركين معنى أن تكونين سببًا وحيدًا وكافيًا لاستمرار الحياة؟

إذن لماذا أنتِ لست معي الآن؟

في الرابعة من فجر الجمعة الماضية استيقظتُ مفزوعًا على صوت طرقات عنيفة ومتسارعة على الباب.. كان عم "غنام"، ابنته الصغرى تشكو من ألم شديد بالبطن ويريد أن يأخذها للطبيب خشية أن تكون الزائدة. طلب مني مائتي جنيه حتى يحصد

الأرض لأنه لا يملك سوى عشرين جنيهًا فأخبرته أني سأذهب معه.

سألته هل أحضر سيارة إبراهيم فأخبرني أن ابنه وليد أيقظ صبحي وسيأتي معنا بسيارته. ركبت البنت وأمها في كابينة السيارة النصف نقل الأمامية وركبنا عم غنام ووليد وأنا في الصندوق الخلفي.

عندما أخبرني أن وليد أيقظ صبحي وسيأتي معنا ظننت أنه يقصد صبحي أبو رضوان جاره المباشر لكنني فوجئت أنه صبحي الشناوي الذي يسكن في آخر القرية فسألته بصوت مرتفع لأتغلب على الضجيج الذي تحدثه السيارة: ليه مصحيتش صبحي أبو رضوان أقرب لك؟

فأجاب بانفعال: ده واد واطي مش بيشخ على ايد مجروح.. أني طالق له فارغة من زمان. التزمنا الصمت بقية الطريق، كنت أفكر فيك، وكان عم غنام يحدق في ابنته المريضة من خلال الزجاج الخلفي للسيارة بينما وليد افترش أرضية السيارة وغط في نوم عميق.

عم غنام هو المزارع الذي يزرع لنا أرضنا، ربما هو الوحيد في قريتنا الذي مازال يحافظ على نمط الحياة الريفي الأصيل فهو مثلًا ينام بعد صلاة العشاء ويستيقظ في الفجر، كما أن زوجته مازالت تخبز الخبز الفلاحي في الفرن البلدي.

ذات مرة عندما أتي ليهدي أمي بعض أرغفة الخبز الفلاحي الذي نحتاجه فقط من أجل "الفته" سألته لماذا مازلتم تصرون على الخبز الفلاحي فأخبرني أنه لا يستسيغ الخبز الابيض البلاستيكي الذي نأكله.

أهم ما يميز معيشته هو البساطة، يتغلب على نقص السيولة بحيل يعرفها جميع الفلاحين، فهو يشتري احتياجاته من عم جلال بالأجل ويدفع له مع كل محصول ولأن عرف الزراعة عندنا يقول إن المزارع يتحمل تكلفة الأيدي العاملة بينما يتحمل مالك الأرض بقية المصروفات من بذور وسماد وري وخلافه. فهو يتحايل على هذا بطريقة تعرف بـ (المزاملة) حيث يعمل في أرض مزارعين آخرين بدون أجر مقابل أن يعملوا في أرضه أيضًا بدون أجر وهكذا.

عندما رغب وليد ابنه الاكبر في الزواج من ابنة عمه "داليا" رفض عم غنام ورشح له ابنة خالته "ميادة" وطلب مني أن أقنعه قائلًا: أصل الواد بيعزك وهيسمع كلامك.

ولما سألته عن السر وراء تفضيل ميادة على ابنة أخيه تعلل قائلا: البت ما تتعييش الصراحة بس دي ترباية بندر وبتحط أحمر وأخضر

ديك النهار كانوا حدانا في الدار وشافت الجاموسة والواد غريب بيبيتها قوم خافت منها مش لوننا يا يحيي عيلة مايصة كده لكن ميادة بالصلاة على النبي طالعة لأمها شاطرة وشايلة بيتهم من

صغرها وكمان بتعرف تحلب.. ثم أضاف بنبرة ماكرة: احنا عايزين واحدة ايديها بايدينا يا يحيى يا بني مش واحدة تفضل تقول عايزة وهاتلي وهي ما بتدخلش جنيه.

وافق وليد.. وقرر عم غنام أن يمنحه غرفة في البيت ولما اقترحت عليه أن يهدم حظيرة المواشي ويبني للولد غرفتين مكانهما ليحظى بالاستقلالية.

أجابني بتلقائية وحسم: ماهو أني لو هديت الزريبة الواد هيلاقي الاستقلالالية دي بس مش هيلاقي يأكل.

من يومها احتفظت باقتراحاتي لنفسي وأدركت مدى الاختلاف بيننا.

عم غنام رجل طيب.. هادئ.. عملي.. بسيط.. لا تفارق الابتسامة وجهه، وعندما يضع رأسه على الوسادة ينام من فوره، غير مبتلي بصفات الطبقة المتوسطة، لم تصبه لعنة الطموحات المجهضة والأحلام الموءودة، عم غنام ليس لديه أحلام من الأصل.. لا يشغله لماذا خُلق؟ ولا ما الذي يفعله هنا؟ لا يطرح عقله عليه أي أسئلة.

الأسئلة يا سارة كائنات شريرة.. تنهش الأرواح وتصيبها بالقلق والتوتر والدوار.

الإجابات أيضًا ليست خيرة كما قد يتبادر لذهنك.. الإجابات مختالة.. مخادعة.. متلونة.. وجبانة.

سارة..

عندما أبدأ أي رسالة لك فإنني لا أتمنى أن تنتهي أبدًا لكنني مرهق.. أشعر بإرهاق شديد واشتياق وحب وأستأذنك أن نكمل كلامنا في رسالة قادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثانية والثلاثون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

الحب يا سارة هو أن يقبل الحبيب حبيبه كما هو،

ألا يتمنى أن يكون أقل أو أكثر مما هو عليه، لكنني على العكس من ذلك، أتمنى أن تكوني أقل مما أنت عليه، فالقلب لم يعد يتحمل هذا القدر الهائل من الجمال والبهاء والفتنة والسحر.

بالأمس شاهدت فيلم "انترستيلر"، الفيلم جميل يا سارة ولابد أن نشاهده معا في أقرب وقت.

سارة..

باعتبار أن حياة الإنسان ليست ملكا خالصا له بحكم تداخلها من أشخاص آخرين كالأم أو الحبيبة مثلا. ما مدى أخلاقية التضحية التي يقوم بها الإنسان؟

وهل يرجع القرار له وحده؟؟

حين قرر "ماكونهي" (بطل الفيلم) السفر للفضاء في محاولة أخيرة لإنقاذ العالم وواجه قراره رفضا قاطعا من ابنته الصغيرة التي تحتاج رعايته واهتمامه والتي قاطعته ورفضت الحديث معه بعدما نفذ القرار وسافر بالفعل.

هل كان عليه أن يستجيب لها؟

هل تظن أنك تعرف الخير من الشر يا حضرة الباشا الضابط؟؟

طيب..

ما رأيك في سلوك "مات ديمون" الذي قرر أن يضحي بنفسه وينقذ البشرية ثم بعد أن جرب الوحدة وواجه الموت قرر التراجع ولجأ للكذب والخداع من أجل أن يجعلهم ينقذونه؟

هل جربت أن تعيش وحدك على كوكب ما بلا أي حياة أخرى ولا حتى شجرة؟

لا أظنك تفهمني يا حضرة الباشا الظابط. منذ متى وأنتم تفهمون عامة الشعب؟ المواطنين العاديين..

المواطن العادي يا سارة هو نقيض المواطن أبو شرطة (بفتح الشين)

أما المواطن أبو شرطة فهو المواطن الذي يسبق اسمه (شرطة) وقبلها لقب ما،

فيكون مثلا.. المستشار / فلان أو اللواء / فلان

هذا هو المواطن المرئي.. المواطن المسموع..

ولأن حضرة الباشا الضابط ينتمى لنفس الفصيلة ذات الـ (شرطة) فهو يفهمهم

أما نحن؟؟!!

لا أظنك تحتاجين لمزيد من الإيضاح في هذا الصدد.

يقول جورج أورويل في إحدى رواياته: "قد لا يحتاج الانسان أن يكون محبوبا بقدر ما يحتاج أن يكون مفهوما".

لكن ما يدعو للأسف أن الفهم الكامل يكاد أن يكون مستحيلا، إذا كان الانسان لا يقوى على فهم نفسه بالكامل. فما بالك بالآخر.

نعم يا سارة..

لا أحد يستطيع أن يفهم أحدا على نحو كامل ويبقى أقصى ما نرنو إليه هو حاله أشبه بحالة "عبلة الرويني" مع "أمل دنقل" والتي عبرت عنها في كتابها البديع "الجنوبي" الذي يحكي قصة حياة "دنقل" بمنتهى الرقة والعذوبة والفهم.

ما أجمل أن يجد الإنسان شخصا يفهمه كل هذا الفهم الذي يصل لدرجة التماهي فيفلسف عيوبه ويفسر أخطاءه على أنها ناتجه من نبله وشاعريته ويتفهم احتياجاته وتقلباته المزاجية فيصمت حين يكون الصمت واجبا ويتحدث حين يكون الحديث مطلوبا

سارة..

قد أقبل منك أي شيء

وقد أتفهم وأفهم أيا مما تفعلين أو تقولين لكن ما لا أستطيع استيعابه أو فهمه هو ذلك السؤال القاسي..

لماذا يا سارة؟!

لماذا انت لست معي الآن؟

سأتركك الآن لتبحثي عن إجابة إن كان هناك ثمة إجابة لهذا السؤال الشرير وإلى لقاء في رسالة قادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثالثة والثلاثون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أعلم يقينا أنه كان لابد أن تولدي كي تدرك الارض أن لم يطأها نساء قبلك قط وأنه كان لابد أن نلتقي كي تبتذل كل كلمة حب قيلت لسواك.

لكن السؤال هنا.. هل لابد أن نفترق كي تعلم الحياة أن ما مضي عليها من أحزان كان محض مزحة؟

حسنا..

لابد من الاعتراف، فيما عداك ألف مليون لعنة على كل شيء، فليذهب العالم إلى الجحيم أو إلى التجنيد الإجباري.. لا فرق.

أتعلمين!

في فيلم الإرهاب والكباب مشهد لا يفارق مخيلتي: عندما استنكر عادل إمام على أشرف عبد الباقي كراهيته للتجنيد قائلا: أنت في خدمة مصر. فأجابه عبد الباقي بتلقائية شديدة: أنا مش في خدمة مصر أنا في خدمة الباشا سيادة اللوا والعيال الباشوات ولاد الباشا سيادة اللوا. أظنك أخيرا تفهمني يا حضرة الباشا الضابط.

تغير الأمر الآن يا سارة.. لم يعد المجند فقط هو الذي يخدم الباشا سيادة اللوا، أصبح الشعب كله في خدمة الباشا سيادة اللوا والباشا سيادة المستشار أيضا سيادة المستشار ذو البدلات التي تنقسم ميتوزيا وتتكاثر ذاتيا ولا إردايا حتى أنني أخشى إن ذكرته مرة أخرى في رسائلي أن يمنحه حضرة الباشا الضابط (بدل ذكر في رسائل المواطنين / الخدم).

نعم..

الخدم يا سارة، يزعجك الاسم؟! هكذا هي الحقائق دائمًا مزعجة ومقلقة خاصة تلك التي تزعزع الموروثات والعادات العتيقة.. تلك التي تثير العجائز والمتيبسين وتهيجهم وتجعلهم يدافعون باستماتة عن ركودهم وأفكارهم القديمة البالية، ليس دفاعا عن الفكرة نفسها.. إنما دفاعا عن أنفسهم وكبريائهم الشخصي، إذا كيف يقبلون أن يكشتفوا بعد كل هذا العمر أنهم كانوا سذجا وبلهاء وعاشوا عمرهم مخدوعين.

سارة!

ألم يكن من الممكن أن تمتد اللحظة التي أنظر أثناءها في عينيك لتكون العمر كله؟ لماذا تتركينني هكذا؟ وحدي أعانق الخواء وألعن الفراغ وأشتاق إليك وأحبك.

سارة!

لماذا أنت لست معي الآن؟ لقد تغيرت وتبدلت أحوالي في الفترة

الأخيرة لدرجة مرعبة، فقدت كثيرا من مرحي المعتاد، أتغير.. أتغير بشدة.. أفقد كل يوم جزءا من نفسي تدريجيا يتغير كل ما في.. لون بشرتي.. نظرتي.. طريقة كلامي.. عملية تحول بطيئة ومخططة وواثقة.

لم أعد ذلك الشخص الذي كنته، الحقيقة مرعبة والواقع مرير وقاسي الآن أدرك أهمية النظارات الشمسية والضباب والستائر.

الزمن كائن أخطبوطي يلتهمني ببطء وتلذذ. حنيني لـ (وطن) لـ (معنى) لـ (حياة) حنيني لك يستهلكني، يطحنني لحما وعظما.

أحلام اليقظة هي زادي في تلك الايام أهرب منها إليها، أغمض عيني.. أسبح في حلم جديد، أقابلك صدفة، أعانقك حتى نكاد نمتزج، أغرق في تفاصيلك. أخبرك أنني منعت عماد من السفر، منحت أمينة المزغودة كثيرا من النقود والروايات الرومانسية، أحضرت لأمي دواء للروماتيزم، ألقيت سيد الوكيل وزوجته من النافذة وأخبرت الشرطة أن شريف الوكيل هو الذي فعلها، ثم أتيتك لأقضي ما بقى من العمر معك. أستغرق في الحلم بكل جوارحي، أشعر بالراحة والرضا ثم أفتح عيني فيصفعني منظر الغرفة بجدرانها البيضاء الباهتة وشرفتها التي تطل على اللا شيء يخنقني ذلك الفراغ الذي يحيط بي.

آه يا سارة..

أنا لا أنتمي لهذا الزمان، تركتني ف الماضي وجئت هنا أبحث عن شيء لا يعنيني.

سارة!

أخشى أن حضرة الباشا الضابط بدأ يشعر بالملل من كآبتي وأنت تعلمين جيدا عاقبة هذا الأمر.

لا أدري..

سأحاول في الرسالة القادمة أن أمنحه بعض الإثارة، ربما أحقق وعدي القديم وأحكي لكما عن ذلك البرنامج التافه.. ربما..

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الرابعة والثلاثون

"فنحن بصدد زحف شيء أخطر من مجرد الانفتاح أو الرأسمالية أو التغريب، وهو تحويل كل شيء خطوة بخطوة ، ليصبح محلا للبيع والشراء، حتي روح الإنسان نفسه"

جلال أمين – ماذا حدث للمصريين

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أتدرين بم أفكر حين أرى ابتسامتك؟

ستقولين عني مجنون حتما.. كعادتك

أفكر أن لو رآك نيوتن لأضاف لقانون الحركة عبارة جديدة..

لو أنه رآك لقال أن لكل فعل رد فعل مساو له عدا ابتسامتها فلا استجابة تضاهيها.

أتعلمين أنه في أي ساعة من الليل عندما تضحكين تشرق في السماء شمسٌ؟

مازلت اذكر تلك الليلة حين رأيت إحدى عشرة شمسا رأيتهم لي بارزات..

كنت قد حكيت لك ليلتها إحدى عشرة نكتة وحكاية وحيدة عن فراق حبيبين لم تعجبك.

لطالما أخبرتني أنك لا تحبين سوي الحكايات الخيالية وحكايتي لم تكن كذلك.

منذ تلك الليلة وأنا أتابع النشرات الجوية يوميا، لكنني إلى الآن لم أسمعهم يعلنون عن أي شمس أشرقت ليلا في السماء.

هل كان بيدي ألا أحبك يا سارة؟

إذن لماذا ألحت عليَ أم كلثوم ليلة أمس أن: خلينا بعييييد بعيد أسلم!!

أعلم أنه أسلم لكن هل الأمر بيدي؟؟

أخبريها يا سارة..

أخبريها أن أرض الحب إذا انشقت تحت قدمي الإنسان فإنها تبتلعه لا مفر وأنه منذ تلك اللحظة محال أن يعود لسابق عهده أبدًا.. مهما أراد ذلك.

مؤخرًا ملكني شعور غريب ودائم ومتواصل بأني عار.

أمشي في الشارع فأتحسس ملابسي فجأة لأتأكد أنها موجودة تغطيني وأقاوم طول الوقت رغبة قوية بأن أغطي عورتي بيدي أثناء سيري.

أنام ليلا فأشد البطانية تحت قدمي وأثبتها جيدا وأمدها حتى تغطي رأسي بالكامل ثم أفيق عدة مرات أثناء الليل لأتأكد أنها مازالت تغطيني.

إحساس قاس ومر، الكل يرون عورتي وتخترق نظراتهم جسدي.

سامحها الله أمي هي من ملأ ت رأسي بتلك الأفكار، جعلتني أصدق أني مميز.. أني غير عادي وأني نادر الوجود.

الآن أفتش في نفسي بلهفة، لا أجد إلا كل ماهو عادي وتقليدي. ما كان من المفترض أن يكون طبيعيا أصابني بالإحباط، لم أمسك نفسي من قبل متلبسا باتخاذ قرار، مذكرة دفاعي معدة مسبقا والشهود موجودون وأنا أولهم، كل ما في حياتي لم أقم به، لم أكن أبدا طرفا فى الأحداث، كنت دائما مفعولا به لا فاعلا، باستمرار كنت ذلك المشاهد الخامل الكسول، لم أجرؤ أبدا على مجرد التفكير فى المشاركة.. المشاركة تعني كثيرا.. تعني أن أتحيز لموقف، أن أكسب طرف وأخسر الآخر، تعني أن أختار.. وأنا لم يكن عندي استعداد لدفع مقابل الاختيار..

هذا لم يكن اختيارا على أية حال.. امتناعي عن المشاركة لم يكن اختيار، كان فقط هو الأسهل.. هو الوضع القائم والموجود.

كنت دوما ابنا بارا ومطيعا للمجتمع، لم أدخل الكلية التي أحبها، دخلت الكلية التي ستؤهلني لوظيفة مرموقة.. لأحصل على

كثير من النقود، كي أتمكن من شراء شقة وسيارة وموبايل حديث، كي أتمكن من الزواج، لأنجب أطفالا وأدخلهم مدارس أجنبية تؤهلهم لوظيفة مرموقة أيضا.

ولا تنسي يا سارة أنني ابن بار للمجتمع.. حيث لايسمح بالتفكير أو الاهتمام بأشياء تافهه وبلا قيمة مثل الهواية.. ممارسة الهوايات.. التدين.. الثقافة.. امتلاك مشروع فكري أو معرفي.. هذه أشياء غير مطلوبة للوظيفة المرموقة.. هذه الأشياء لا تخلق (شخصا مناسبا لسوق العمل).

كم هي مقيتة هذه العبارة!

هل سيتغير أي شيء في المعني لو استبدلنا كلمة (شخص) بكلمة (شيء)؟ وهل تنظر إلينا الشركات العالمية على أننا مجرد مجموعة من (الأشياء)؟ وسيلة من وسائل الإنتاج والاستهلاك؟ وسيلة تستطيع أن تتحدث الانجليزية، وتتعامل مع الحاسب الآلي، وتجيد التعامل مع الأرقام.. لغة البزنس الأثيرة، أما كل ما لا يمكن تحويله لأرقام فهو بلامعنى وبالتالي فلا أهمية لأن يتعلمه أحد.

ما حجم الإيثار؟ كم يبلغ طول التضحية؟ ما وزن النبل؟

هل يمكن الحصول على العدالة عن طريق البطاقات مسبقة الدفع؟ هل يمكن تحويل الحرية لوديعة بنكية ذات عائد سنوي مميز؟

كيف نرفع الحصة السوقية للحق والخير؟ هل نقوم بتغيير شكل العبوة ؟ أم نقوم بتوزيع "لويالتي كارد" على العملاء؟ أم أنه من الأفضل عمل عروض ترويجية.

اشتر عبوتين (حق بطعم البرتقال المنعش) واحصل على الثالثة مجانا.. خصم 50% على أحدث موديلات الخير لشتاء 2015.. اشتراك مجاني لمدة سنة في مجموعة مختارة من العلاقات الإنسانية الخالية من المصلحة والكوليسترول.. الكمية محدودة والعرض سارٍ حتى نفاد الكمية.

ألم أقل لك يا سارة؟

فيما عداك..

ألف مليون لعنة على كل شيء في هذا العالم.

آه بالمناسبة..

أشكرك على رسالتك يا حضرة الباشا الضابط، كان الهاتف مغلقا فلم أتمكن من قراءتها سوى آخر الليل وحاولت أن أرد عليها لكن الرقم الخاص الذي أرسلت منه لا يستقبل رسائل، هكذا أخبرتني موظفة خدمة العملاء بنبرة آلية وود مصطنع، يالها من فتاة مثالية وصالحة لسوق العمل، لقد أعطيتها الدرجة النهائية في برنامج التقييم الذي أعدته الشركة لرفع كفاءة وسائلها الإنتاجية ولابد أنها بهذه الطريقة ستحصل على مكافأة كبيرة وستتمكن

أخيرا من نفخ شفايفها لتصبح أكبر من شفايف زميلتها "إنجي" التي تحصل صورها على مئات الإعجابات خاصة تلك التي ترسم فيها شكل الـ (دك فيس).

سأخبرك يا سارة لا تتعجلي..

سأخبرك بمحتوى رسالة حضرة الباشا الضابط والرد الذي كنت أنوي إرساله له وسأخبرك أيضا عن ثريا.

لكن دعي ذلك للرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الخامسة والثلاثون

"أنا اثنان في واحد

أم أنا

واحد يتشظى إلى اثنين

ياجسْرُ ياجسرُ

أي الشَّتِيتَيْنِ من أنا؟"

محمود درويش –كزهر اللوز

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

منذ عشرة أيام ونيف أحاول أن أصفك بلا جدوى. لا أعلم معنى كلمة (نيف) لكن في حضرتك لا معنى لأي معنى قديم قبلك.

هل يوجد شيء قبلك؟؟ وجودك يا سارة يمنح للأشياء معاني جديدة.. يحطم القوانين القديمة والقواعد الماضية..

حين قال أفلاطون: إن القيم الكلية كالجمال والخير موجودة ومجسدة في مكان ما من العالم.

سخروا منه.. معذورون.. لم يروك.

ماذا أكتب عنك؟

أأقول جميلة كـ... كماذا؟

كيف وأنا قد قررت منذ رأيتك إنني حين أقابل سكان المريخ أو الزهرة، وسأفعل، فسأخبرهم عن معنى (الفتنة) بأن أشير إلى عينيك، وإن سألوا عن معنى (شهية) فسأشير إلى شفتيك، أما إن سألوا عن معنى (البهجة) فسأطلب منك ببساطة أن تبتسمي وإذا سألوني عن معنى (الندم) فسأحملهم إلى كل مكان لم تطأه قدمك، ولو سألوا عن معنى (العدم) فسأشير لكل الأشياء سواك.

من أين لي بوصف يليق بك إذا كان كل البشر من الطين قد خلقوا وأنت وحدك من ثنايا الدهشة خلقت.

سارة منذ ثلاثة أيام وأنا أكاد أجن،

ما هذا الذين يحدث لنا في هذا الزمن؟ ماهذا السباق الانتحاري الذي نعيش فيه؟ ما هذا الشعور المزعج الذي يلازمنا؟ شعور ممض ومقلق بعدم كفاية الوقت.. هناك دوما شيء ما يضغط علينا للإسراع وللتعجل قبل أن يداهمنا الوقت في كل شيء نفعله، حالة دائمة من اللهاث.. في العمل نلهث كي ننتهي من كل الأعمال الموكلة إلينا في موعدها.. وفي الليل نلهث لأداء كل الأشياء التي نرغب في أدائها خلال الساعتين اللتين نقضيهما في المنزل قبل النوم.. مشاهدة آخر الأخبار في التليفزيون.. ومتابعة

الفيس بوك والقراءة والكتابة ومقابلة الأصحاب والتسوق أو.. أو.. الخ.

وكأن شيطانا مخيفا يطاردنا ويجبرنا على العدو أمامه في كل الاتجاهات دوامة هائلة من الخيارات والمفاضلات والقرارات التي يجب اتخاذها في كل لحظة. دوامة هائلة تسحبنا داخلها، حالة جنونية مفزعة من السرعة والتعجل واللهاث أصابتنا وأصابت كل العالم من حولنا حيث لا وقت للتفكر ولا للتدبر ولا حتى لالتقاط الأنفاس، وكأنما أصابتنا لعنة فرعونية مخيفة أو ألقيت علينا تعويذة شريرة من سحر أسود. تجرنا الدنيا في سباق محموم وبشع يتساقط خلاله الأحباب والأصدقاء والذكريات والمشاعر دون أن نلاحظ أو نكترث، بينما نواصل الجري بكل ما أوتينا من قوة في تلك المسابقة الجنهمية سعيا وراء أشياء لا ندركها ولانفهما، وقد نكتشف عند خط النهاية أنها لا تعنينا أيضا وأن ماتركناه خلفنا في سبيل اللحاق بها كان أفضل وأنسب وأهم.

أتدرين؟!

تخيلت نفسي وقتها وأنا في حجرتي هذه أصرخ صرخة مدوية (كفاااااياااااا) صرخة كانها تعويذة شافية تهز أرجاء الكون فتكف الأرض عن الدوران ويتوقف كل شيء عن الحركة.. البشر.. السيارات.. الآلات.. الرياح.. السحب.. وحتى تلك المروحة الملعونة التي تدور فوق رأسي ويكاد صوت دورانها الرتيب يصيبني

بالجنون، كل شيء يتوقف عن الحركة.. يعطي نفسه ويعطينا هدنة لالتقاط الأنفاس والتفكير.. نتأمل خلالها كيف كنا؟ وماذا صرنا؟ وإلام سنصير؟

ننظر في المرآة علّنا نفهم من هذا الغريب الذي يحدق فينا ونحاول أن نتعرف إليه من جديد، نراجع قائمة المفقودات الطويلة ونعطيها ما تستحقه من حزن واهتمام نجهز كشف حساب مؤقت ونقارن التكلفة بالعائد لنتأكد من الطريق الذي نمضي فيه ونحاول تعديل اتجاهنا قبل فوات الأوان. ثم أفقت من تأملاتي على صوت هاتفي يعلن استلامه لرسالة جديدة

"لا تخف لن أؤذيك"

هذا هو نص رسالة حضرة الباشا الضابط التي حدثتك عنها في المرة الماضية يا سارة.

ماذا ستفعل إذن يا حضرة الباشا الضابط؟ هل تجيد شيئا آخر؟

آه ربما تقصد أنك ستخبر أحمد سبع الليل أنني من أعداء الوطن وتترك له بقية المهمة.

أعلم إنك رجل طيب ووطني،أنت لم تؤذ أي شخص من قبل، الآلاف الذين تم اعتقالهم أو اغتيالهم لم يتعرضوا لأذية، أنت فقط كنت تؤدي مهمتك، كنت تدافع عن الوطن ضد أعدائه، أنتم لا

تخطئون، لا يأتيكم الباطل من بين أيديكم ولا من خلفكم، مؤكد أنهم كانوا إرهابيين أو كانوا سيصيرون إرهابيين أو كانوا سينجبون أولادًا سيصبحون إرهابيين.

حضرة الباشا الضابط!

أنا أدرك تمامًا سبب صبرك وإمهالك لي وأعمل جاهدًا على استمرار هذا السبب لذا.. فكك مني.

سارة!

داهمنا الوقت ولن أتمكن من الحديث عن ثريا في هذه الرسالة فأنا كما تعلمين لدي موعدعمل في الصباح ولابد أن أنام الآن لأتمكن من الاستيقاظ مبكرًا للمشاركة في السباق الانتحاري للحياة.

سامحيني سأحكي لك عنها في الرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السادسة والثلاثون

"بدت لي حياتي صدفة فارغة لم يكن لها أي معنى... وإن أخطاء العالم كلها تلتقي عندي!!"

غسان كنفاني —موت سرير رقم **12**

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

أتذكرين..

حين أخبرتك أني أحبك لأنك الوحيدة التي تستطيع الوجود بمكانين في اللحظة نفسها؟ أحدهما قلبي والآخر لا يعنيني.

كنت ساذجًا.. غبيًا.. أو كنت أكذب.

كلا

بل يعنيني طبعًا. هل أفتقد من الدنيا شيئًا سوى ضحكتك وعينيك؟ عيناك اللتان تختصران ما في الكون من جمال وضحكتك التي تصيب قوانين الطبيعة بالجنون..

تضحكين فتنبت الأزهار في أحضان الجبال الصخرية وتبكي الأسود ذعرا إذا ما لمحت غزالة برية وتمطر السماء فراشات ذهبية

وضحكات أطفال وقبعات ملونة وقلوب بيضاء وحبات كرز من النوع الذي تفضلين.

آه يا سارة..

لماذا أنت لست معي الآن؟

أتعلمين؟ هذا المساء مر عليَّ عماد، لا تعجبني أحواله في الفترة الأخيرة، أصبح سريع الغضب، كثير الصمت والشرود، ما إن دخلنا غرفتي حتى أبدى ضيقه وشعوره بالاختناق وطلب باستجداء أن نخرج إلى الحديقة، على السلم أخذ يداعب زهرات الجاردينيا المستكينة في أصصها على جانبي الدرجات، وفور وطئه الأرض دس وجهه في أحضان شجرة الياسمين على يمين المدخل أغمض عينيه وأخذ يملأ رئتيه بعبيرها الآسر، وقفت بجانبه عاقدا ساعدي على صدري وأخذت أراقبه مبتسما وهو يعيد شحن بطارياته الحيوية كما يقول دوما، اتجه بعدها ناحية ملكة الليل المزروعة بمحاذة السور وأخذ يجدف بيديه في الهواء من أسفل إلى أعلى كأنما يرفع شذاها إلى مستوى أنفه، التفت ناحيتي وابتسم ابتسامة واهنة ثم تأبط ذراعي وسحبني تجاه النخلة الواقفة بتعال في يسار الحديقة، نخلتنا غريبة ونادرة تثمر بلحا لم أر مثله طويل وله شكل البلح الزغلول ولكن لونه أصفر زاهٍ كأصابع الموز الناضجة كما أن مذاقه كالشهد، في طفولتنا كنا نتبارى في رشق الشماريخ العالية بالحجارة وكان عماد أمهرنا إذ كان حجره يسقط العدد الأكبر من

البلح، انحنى عماد والتقط حجرا صغيرا في حجم حبة المشمش وقذفه بقوة لأعلى لكن رميته طاشت، حاول مرة أخرى وأخرى وأخرى، بدأ يلقي الحجارة بسرعة وغضب، لوهلة شعرت أنه لا يقصد النخلة فقط بحجارته تلك، بعد عشرات المحاولات الطائشة استسلم، أسند ظهره إلى شجرة التوت القريبة من النخلة وجلس يعبث بالحصى المنتشر على الأرض وهو يلهث.

كنت واقفا أمامه أتطلع فيه بإشفاق وأردت أن أقطع الصمت فقلت بحياد: ماعادتش بتطرح

ثم أشرت بكفي الأيمن إلى أغصان شجرة التوت فوقه، أجاب بلا مبالاة: ما قطعتهاش ليه؟

صدمت من إجابته ولم أرد، بعد فترة من الصمت الثقيل رفع ناحيتي عينين ذابلتين وبدأ يحكي..

حكى أن ابنته جودي عندما كانت في الخامسة من عمرها كان تفتقده وتريده أن يمنحها مزيدًا من الوقت.

كان يعمل لمدة تزيد عن خمس عشرة ساعة وحين يعود إلى البيت لا يكون صالحًا للاستهلاك الآدمي، وأقنعتها أمها أنه لا بد أن يعمل ليشتري لها كل ما تشتهي، بدأت البنت تردد الجملة كثيرا لكل من تقابله: "بابا لازم يشتغل عشان يجبلي كل اللي نفسي فيه"

بعد عدة سنوات.. عاد، زارته أخته وأثناء فرجتها على المنزل قالت بعفوية: ماشاء الله انتوا عندكوا كل حاجه ممكن الواحد يحلم بيها في بيته.

كانت سعيدة وفخورة بأخيها لكن الجملة هزته، وفجأة لمع المعنى الخفي لجملة جودي "بابا لازم يشتغل عشان يجبلي كل اللي نفسي فيه"

ولاحقته الأسئلة ككلاب مسعورة.. من يعمل عند من؟ من يملك من؟ هل أمتلك مقتنياتي أم هي التي تمتلكني؟ أي جنون جعلني أتحول من أب وزوج إلى بنك؟ من إنسان إلى ماكينة صراف؟ أي شيطان أقنعني أن أحول أجمل سنوات عمري إلى حفنة من الأجهزة والمفروشات؟

فجأة.. انتفض واقفا وأخذ يعدو في أنحاء الحديقة كالمجنون متخيلا أنها منزله توقف في أقصى اليمين وقال كأنه يفرجني على المنزل: هنا الصالة آ آسف الريسبشن حتى لا تغضب ناهد، هذا تلفزيون خمسين بوصة ثلاثي الأبعاد ذكي يتصل بالانترنت ويشغل ألعاب الفيديو ويعمل عجين الفلاحة، أما هذا فريسيفر اتش دي له كامتان لا شتراك الاو اس إن والجزيرة، وهذه السماعات هي سماعات المسرح المنزلي الدولبي ديجيتال، مكيف هواء سبليت أمريكي، ستائر سيدار بريموت كنترول حتى لا ترهق أصابعنا في فتحها وغلقها، انتريه مودرن أميريكان، سجاد بوبرة عالية،

بورسلين، البورسلين للصد.. للريسبشن فقط أما بقية المنزل فتنازلنا وجعلناه سيراميك عادي، الصالة وحدها تكلفت ربما عامين أو ثلاثة، اللعنة.. الريسيبشن.. الريسيبشن.

كان يتحدث بانفعال وبسرعة شديدة كأنه مبرمج آليا، أشار إليّ وهو يتحرك ناحية اليسار قائلا: تعال تعال لأريك المطبخ.. المطبخ كما ترى أميريكان أيضا أخو الانتريه (يضحك)، لابد أن يكون أميريكان حتى يرى الزوار الأجهزة التي بداخله.. الميكروويف والكتشين ماشين والعجانة وغسالة الأطباق تكلفت سنة.. لا بل ستة أشهر فقط لا يجب أن أبخس عمري هكذا، هذا بوتاجاز إيطالي خمس شعلات ثمنه شهر واحد شامل الجمارك والشحن، ليس غالي الثمن خاصة أن فرنه يستوعب خروفا كاملا، ثم همس وهو يهز رأسه: مع إننا لا نحب الضأن..

هذه ثلاجة سبعمائة وخمسون ألف قدم تحفظ الطعام لمدة ألف سنة مما تعدون ولها بابان.. لو كنت وجدت واحدة بثلاثة أو أربعة أبواب لما ترددت في شرائها فأنا كما تعلم ثريا وأعمل في الخليج ولدي كثير من السنوات القابلة للتحويل إلى ريالات وأجهزة وهواتف وسيارات.

كان يرتجف أثناء الحديث من فرط الانفعال والعصبية، اقتربت منه، حاولت تهدئته، أمسكت يده ودعوته للجلوس فجذبني من يدي بقوة وقال: تعال لم أنته بعد مازال لدي كثير بالداخل،

الحمام.. غرف النوم.. مازال البيت مليئا بالأجهزة.. بالأيام.. بالسنوات التي تحولت لرمل وأسمنت وحديد.. تعال لابد أن تشاهد.. لابد أن تنبهر.. ما فائدة الأجهزة إذا لم تجعلك تنبهر؟

لكن مهلا..

لقد خدعني مهندس الديكور الذي تقاضي وحده عاما ونصف العام من عمري صحيح أنه استغل المساحات باقتدار وكدس البيت بالأجهزة والاثاث لكنه نسى أن يترك مساحة للونس.. للدفء.. لراحة البال.. للطمأنينة.. للسكينة.. للبراءة.. سأتصل به، (وأخرج الهاتف من جيبه) سأغريه.. سأعطيه ستة أشهر أخرى.. مؤكد سيجد حلا.. ربما يستطيع أن يجد لهم مكانا في السقف المعلق أو في غرفة المعيشة أو في السفرة بدلا من النيش مثلا ولتذهب ناهد إلى الجحيم وإذا لم يستطع؟!

بهتته الفكرة فصمت لوهلة كأنه يفكر في حل ثم أكمل بصوت متهدج ونبرة مستعطفة باكية:

إذا لم يستطع فعليه على الأقل أن يصنع لنا جهازا جديدا جهازا يزيل السأم الذي يستتر خلف الستائر الأتوماتيكية وتحت السجاد ذي الوبرة العالية، يزيل الخواء الذي يعشش في الميكروويف وغسالة الأطباق والمسرح المنزلي، يزيل الأرق الذي يكسو كل الوسائد ويختبئ تحت كل الأغطية، لابد أن يجد حلا.. لا بد.. لا بد..

أمسكته من كتفيه وهززته بعنف صارخا: كفاية يا عماد كفاية.

سكت! نظر في عيني كأنه فوجئ بوجودي.. كأنه كان في غيبوبة وأفاق فوجدني أمامه.. تلفت حوله كأنه يتأكد أين هو؟ ثم ألقى رأسه في صدري وبكى.. بكى كثيرا وهَذِي أكثر. قال أشياء كثيرة عن روحه المهترئة.. عن هشاشته وشعوره بالإنهاك والضياع.. عن الغربة المزمنة التي تجتاحه طول الوقت.. عن الوطن الذي فشل حتى في التظاهر بأنه وطن وعن الفقد ثم أخبرني أنه سيسافر بعد أسبوعين.

ذكرني بعبارة بهاء طاهر في قصته البديعة "لم أعرف أن الطواويس تطير" حين قال البطل لصديقته: بعد الغياب الطويل في الغربة لا يعود للإنسان في الحقيقة أي وطن.

وأخبرني إنه حاول كثيرا أن يتجنب هذا المصير لكنه ببساطة فشل.

سألته بإشفاق: هل ستتغرب مرة أخرى؟

فأجاب بأسى: مرة أخرى؟؟ الغربة فعل إذا بدأ لا ينتهى يا يحيى.

كان يمشي في اتجاه الشارع وعند باب الحديقة توقف لثوان ثم أدار وجهه ناحيتي وقال باستسلام: أشعر أني مجوف.

قالها ثم خرج واختفى عن نظري، كنت منهكًا فلم أستطع إيقافه.

هذا ما يحدث يا سارة..

هذا ما يحدث عندما يبيع الإنسان ما لا يجب بيعه.. عندما يستبدل الذي هو أحقر بالذي هو أعز.. لمت نفسي كثيرا بعدها لأنني لم أتكلم.. لم أواسه.. لم أخبره أنني أيضا مثله ضائع..

لأنك لست معي. لم أخبره أني بدونك أشعر أني مجوف.. خاو كجذع نخلة منقعر. أن بعدك يقتلني ببطء.. يمتص من روحي الحياة كقبلة مومياء فرعونية وأنني كلما انسل مني الوقت دون وصلك أشعر كأني أنزوي.. أذبل.. كأن الحياة تتسرب من ثقب خفي في قلبي،كنت أود أن أخبره أنني أيضا أشعر بالغربة واغتراب الروح وأن الغربة ليست فقط غربة الوطن والسفر لكن الغربة ألا يكون لك (هنا)، أن تغادري الحيز الوحيد الذي كان جديرا بأن يكون (هنا) ليغدو كل شيء في عينيك بعدها (هناك)، أن تنتفي الـ (هنا) من قاموسك ويقتصر استخدامها على الإشارة إما للماضي المفتقد وإما للبعيد المشتهى مسبوقة بذلك الفعل الممض المقبض.. (كان)

وأنت كنت (هنا) الخاصة بي ياسارة لكنك تتحولين تدريجيا إلى (هناك)، بمضي الوقت تتغلغل (كان) في كل حديثي وحكاياتي

عنك.. كنت أقابلك.. كنت أهاتفك.. كنت ألمس يديك.. كنت.... كنت....

يسلمني بعدك لكلاب الفقد تعوي في صدري.. تنهشني.. أعلم أنك تنتظرين حكاية خالتي ثريا..

بالمناسبة

خالتي ثريا أيضا تشعر أنها بلاوطن رغم أنها لم تغادر قريتنا إلا مرات معدودة لكن لندع ذلك للرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السابعة والثلاثون

ماذا لو تأتينَ لبضع دقائقَ؟

بضع دقائقَ

يكذبُ فيها الوقتُ

فيصبحُ هذا العالمُ أكثرَ صدقا

أكثرَ رفقا

حين يعدُ صباحا أخضرَ

لظلاميٍّ مثلي

بضع دقائقَ

أسقطُ فيها

من حسبان الغربةِ عمدا

أحجزُ في عينيكِ الهادئتينِ

مكانا لا يسكنه العسكرُ

أو قطّاعُ الطرقِ المأجورون

وأقطفُ حزمة وردٍ للثوارِ

وأخرى للتذكارِ

وأهتفُ باسمِ المنكسرين جميعا!

حسن عامر

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

سارة!

هل يمكن اعتبار الوقت الذي لا أقضيه معك.. حياة؟ ذلك التوقيت حيث ينقضي الليل ولا يأتي الصباح.. ذلك اللا شيء.. هل يمكن اعتباره حياة؟

أظنك قد سمعت عن ثعبان الهيدرا الأسطوري المذكور في الميثولوجيا اليونانية ذلك الكائن الخارق الذي يعيش في المستنقعات ولايمكن قتله ولا القضاء عليه لانه يعالج نفسه ويجدد خلاياه وكلما قطعت له رأسا نبت له رأسان؟

هل لهذا علاقة بتلك الأسئلة التي تتكدس في رأسي ولا تزيدها الإجابات إلا تعقيدا؟ صحيح أني أشعر بالاشمئزاز من تصوير رأسي كمستنقع! لكن هل يوجد تشبيه آخر أكثر وضوحا وأقل فظاعة؟

أحيانا كثيرة عندما تنفرد بي الاسئلة وتحاصرني كفأر في مصيدة، أشعر وكأنني احتجز ملايين النحلات التي لا تكف عن الطنين بداخل رأسي مئات الكرات الملونة التي لا تتوقف عن الدوران والاصطدام والطرق على جدران جمجمتي الداخلية. آلاف الأصداء التي تتردد بلا انقطاع محدثة دويا قاتلا في رأسي وحين أشعر أنني مقبل على انهيار محقق..

تنبثقين أنت من أعماقي كحورية من حوريات الجنة، فينسدل علي كل ما عداك حجاب كثيف وتخفت جميع الأصوات سوى دقات قلبي الملهوف وسوى سؤال وحيد ممض.

سارة!

لماذا أنت لست معي الآن؟

آآه..

هذا الصباح كانت المذيعة التافهة تسأل المتصلين بالبرنامج التافه الذي أواظب على سماعه عن الموهبة التي يتمنون أن يمنحهم الله إياها.

إجاباتهم جميعا كانت متشابهه كانت تدور حول الغناء والتمثيل والرسم بينما خطر لي إجابة وحيدة تلح على منذ زمن.. اللامبالاة! تلك الفضيلة التي لا يمكن للإنسان أن يواصل حياته في هذا الزمن البائس دونها.

لا بأس أعلم أني تأخرت كثيرا عليك فيما يخص حكاية خالتي ثريا لذا فلا مزيد من التلكؤ والمماطلة.

خالتي ثريا هي التي تساعد أمي في أعمال البيت بعدما أصبحت أمينة المزغودة موظفة محترمة في مصنع والد ابراهيم، بشرتها بنية داكنة ولها عينان ضيقتان وأنف عريض وبارز يحتل مركز وجهها المستطيل، تربط إيشاربها الأسود أسفل ذقنها كأنها تخشى أن يتدلى

فكها السفلي، طويلة جدا ولها أكتاف عريضة، كما أن لها قدما ضخما لدرجة أنها لا تجد مقاسها إلا في الأحذية الرجالية، جسدها الضخم كمصارع يبعث الرهبة للوهلة الأولى، لكنك سرعان ما تكتشفين أنها شديدة الطيبة والبراءة و.. والغباء

ولأن القلوب الكبيرة تقاس بمدى القدرة على التسامح وليس بمدى القدرة على العطاء فيمكنك القول أن لخالتي ثريا قلبا كبيرا جدا، رغم أنها قاربت الخمسين إلا أنها تغطي وجهها بطرف الإيشارب خجلا كلما مررت من أمامها.

تناديني خالتي ثريا بلقب ظريف

(سي الأفندي)

وتنطقها هكذا: سيلافندي

وتنادي أمي بـ: عمة الحجة

أو: عمة.

قريبا ستصيب ثريا عمتها الحجة بالضغط أو السكر بسبب غبائها.. غباء منقطع النظير ياسارة من النوع الذي تشاهدينه في الأفلام الهزلية فتظنين أن المخرج يبالغ كثيرًا.

قبل أسبوعين كانت أسرة عمي مدعوة عندنا على الغداء وأمي كعادة العائلات المصرية تكون حريصة جدا على المبالغة في التأنق أمام زوجة عمي.

بعد وصول الضيوف أرسلت خالتي ثريا لشراء كيس شيبسى عائلي بطعم الشطة لتزيين الطعام. المسافة بين منزلنا ومحل عم جلال لا تتعدى عشر دقائق.. مرت نصف ساعة ولم تأت خالتي ثريا فاضطرت أمي لتقديم الطعام بدون الشيبسي وهي في منتهى الغيظ. بعد نصف ساعة أخرى دخلت خالتي ثريا بابتسامة ظافرة ولحقتها أمي على المطبخ. أخبرت عمي أنني سأعد له فنجانا من القهوة وأسرعت إلى المطبخ لمنع المشاجرة الوشيكة.

دخلت فسمعت أمي تهتف بغيظ مكتوم: كنت فين يا عملي الردي؟

أجابت خالتي ثريا غير مستوعبة سبب غضب عمتها الحجة رغم أنها أحضرت الشيبسي العائلي بالشطة: مفيش حدا عم جلال ولا حدا هناء غير شيبسي بالكباب وبالطماطم فروحت جبتلك من عزبة الخيالة

يعني أقول عليكي إيه..كنتي هاتي أي حاجه إن شالله بالزفت المغلي.. إنت يا ولية مش شايفة الأكل اتغرف والناس وصلوا.

مش انت اللي قلتي شيبسي بالشطة.

يتقطع لساني يا شيخة.. يتقطع لساني.

أشرت لأمي أن تكف فاستجابت بصعوبة وخرجت بغيظها تاركة خالتي ثريا خلفها غير مستوعبة إلى الآن مكمن الخطأ.

بعد هذا الحادث بيومين تقريبا اكتشفت أن كل بنطلوناتي بلا استثناء متسخة. سألت خالتي ثريا: انتوا مش كنتوا بتغسلوا امبارح؟؟ أمال بنطلوناتي وسخة ليه؟؟

فأجابت ببراءة: عمتي الحاجه قالت مش تغسليهم.

نظرت إلى أمي مستفسرا فقالت: والله يا بني أنا قلت لها ما تغسليهمش في الغسالة عشان تغسلهم على إيديها بدل ما الغسالة تبوظهم.

تركتهما يتبادلا التهم وارتديت بدلتي اليتيمة وذهبت بها إلى العمل. في المساء كانت أمي تلعن وتسب في سرها بسبب مشكلة جديدة تسببت فيها خالتي ثريا.

حاولت تهدأتها وقلت لها بحسم: ما تمشيها يامه دي هتمرضك.

تبدلت سحنة أمي وردت معاتبة: غلبانه يا يحيى وملهاش حد.

قلت: طيب كل أما تغلط زعقلها جامد خليها تزعل عشان ما تكررهاش.

فردت بعفوية: يا ابني هو بمزاجها دي هي خلقتها كده وبعدين بصراحة بخاف منها أول ما ألاقي عنيها ابيضت وبرقت وأحس انها هتزعل بسكت دي لو رزعتني قلم بإيدها اللي زي خف الجمل دي هتموتني.

نظرت إلى خالتي ثريا التي كانت تقوم بتنفيض السجاد على سور البلكونة ممسكة بطرف السجادة بيد والمنفضة باليد الأخرى فاقتنعت بكلام أمي وأنهيت الحديث معها بأن قلت باسما: خلاص ادعي عليها.

أخ..

اعذريني يا سارة..

يبدو أن هذه الرسالة طالت أكثر من اللازم.. سأخبرك بالطبع لماذا تشعر خالتي ثريا أنها بلاوطن؟

لكن لندع ذلك للرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثامنة والثلاثون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

قديما كنت أكتب (مساؤك سكر) فيتدفق سيل الكلام من قلبي إلى يدي وسرعان ما تمتلئ الرسالة وتفيض ولا يوقفني غير خوفي من أن أطيل عليك فتملي لكن هذا لم يعد يحدث مؤخرا.

أصبحت أكتبها ثم أضع يدي على خدي مستجديا الكلمات بصعوبة.

هل أسرفت في الرسائل السابقة؟ أم أن مشاعري أخذت تتضخم وتتزاحم في قلبي حتى أصبحت عصية على التعبير؟

ذات ونس قال لي عماد إن أسوأ مراحل الحب حين يصبح الحبيب هو كل حياتك، ثم أضاف بحكمة مصطنعة: لا يجب أن يكون أي شخص هو كل حياتك.

كان يتحدث عن الحبيب على أنه (أي شخص) على أنه (آخر)، بينما أنت لم تكوني أبدا (آخر) ياسارة، فمنذ سكنت الروح وقد صرت (أنا)، جزء لا يتجزأ مني.

حينما ننتزع ذرة الهيدروجين من الماء فإن ذرة الأكسجين المتبقية لا تستمر ك(ماء) ولا حتى تسمى ماء بلاهيدروجين بل تصبح (أكسجين) فقط (أكسجين).

هذا ما يحدث لي بدونك..

بدونك أمسي شخصا آخر غيري.

لماذا أنت لست معي الآن ياسارة؟

لماذا تمنعينني أن أكون (أنا)؟

عندما سأل تشارلي شابلن والدته عن رأيها فيما وصل إليه بعد أن أصبح ملء السمع والبصر قالت له بتلقائية عجيبة: حاول أن تكون نفسك!

لوهلة لم أفهم الرابط بين إجابتها وسؤاله لكن بقليل من التأمل أيقنت حقا أن هذا هو المعيار الأول للنجاح.

أن تكون نفسك الآمر الوحيد الجدير بالمحاربة والتضحية من أجل تحقيقه.

لم تعش السيدة هانا شابلن لترى بعينيها أشخاصًا يدفعون مئات الآلوف من الدولارات فقط كي لا يكونوا أنفسهم.

لم تعش لترى مايكل جاكسون وحزبه.

أتدرين ياسارة؟

أنا أعذر الممثلات والمذيعات اللاتي يجرين عمليات التجميل في محاولة يائسة للحفاظ على مظهرهم الخارجي فهن لا يمتلكن غيره.

بيد أن شعورا غريبا يتملكني حينما أنظر إليهن وأتساءل في حيرة كيف برغم هذه الملامح ذات القياسات الدقيقة والمدروسة بعناية لا تبدو هذه السيدة جميلة؟ ولماذا تبدو مصنعة كتمثال الشمع وكأن الطبيب الذي زرع فيها السيليكون قد استل في ذات الوقت روحها؟

هل أحب أحدهم تمثال شمع من قبل؟ أو حلم بأن يحتسي معه الشاي بينما يحكي له عن أحلامه التي لا تتحقق أبدا مهما أراد ذلك؟

في سيرتة الذاتية تحدث شارلي شابلن بكل أريحية وحياد بل وبشيء من الفخر أحيانا عن فقره الشديد الذي وصل إلى حد اضطراره لدخول الملجأ هو وأخيه في بداية حياته. وكان هذا أكثر ما أدهش أصدقائي الذين قرأوا سيرته بينما كان موقفي واضحا.

قلت لعماد بحسم: يمكن للمرة بسهولة أن يتحدث بمنتهى الحياد عن الفقر والمرض والألم بشكل عام مادام قد تجاوزه، أما ما يثير الدهشة حقا يا سارة فهو قدرة الذين يرزحون تحت وطأة الفقر والألم في الحديث عن فقرهم بحياد وتسامح. ما يثير الدهشة حقا هي الطريقة البسيطة المتصالحة التي كانت خالتي ثريا تحكي لي بها حكايتها هذا المساء.

بعد مشاجرة معتادة مع أمي لمحتها تجلس على الدرج المؤدي للحديقة الخلفية. حزينة وصامتة.

أعددت كوبين من الشاي وذهبت للجلوس بجوارها، فوجئت بيدي الممدودة بالشاي وتناولته بابتسامة تحمل كل امتنان الدنيا.

رشفت رشفتين ثم قالت: إنت عارف إن أحلى حاجه حداكو إني بشرب شاي كتير كل يوم، أصلي بحب الشاي قوي بس الأيام الأخيرة بتاعة عمك سليمان مكنتش بشرب شاي عشان أوفره للضيوف.

كانت تحكي ببساطة ألجمتني وجعلتني عاجزا عن الرد.

ثم نظرت في عيني نظرة معاتبة أوجعتني وقالت بلهجة رقيقة: أنا سمعتك وأنت بتقول لعمتي الحاجة مشيها وزعلانة منك يا سيلافندي.

أفهمتها إنني كنت أحاول فقط أن أجعل أمي تكف عن الشكوى لأني أعلم أنها لن تستغني عنها لكنني لم أقصد ما فهمته أبدا.

صدقتني. ولأن قلبها كبير كما أخبرتك سامحتني على الفور وبان هذا في عينيها.

حكت لي عن زواجها من عم سليمان بعد طلاقها من زوجها الأول الذي طلقها دون سبب واضح رغم أنها كانت تتحمل ضربه لها وإهاناته المتكررة.

في بداية الأمر رفضت بسبب فقر عم سليمان الذي كان يعمل صيادا بسيطا وشجعتها أمها لكن والدها أصر على تزويجها.

قالت أنها ذات ليلة سمعت أباها يقنع أمها بتلك الزيجة قائلا: البضاعة ما تجبش أكتر من كده.

وأنها حين دخلت غرفتها ونظرت في المرآة وجدت أنه لم يكذب ثم فكرت أنه برغم أن الحقيقة دائما تكون قاسية إلا أن هذا لا يغير من كونها حقيقة، ووافقت.

بعد زواجها بعامين توفي والداها في حادث ثم سافر أخوها إلى أفغانستان وانقطعت أخباره ولم يتبق لها من الدنيا سوى سليمان.

لم ينجبا.. ليس لديهما مانع صحي لكنهما ببساطة لم يتمكنا من الإنجاب. وكان عم سليمان مريضا بالكبد واشتد عليه المرض في عامه الأخير فلم يعد يقدر على العمل.

قدم طلبا للمعاش بسبب المرض لكن الحكومة اعتبرت أن تليف الكبد ليس إعاقة تستوجب صرف المعاش، ومن بعدها كان سليمان يدعو على نفسه بالعمى أو العرج أو أي إعاقة من الإعاقات التي تراها الحكومة مستحقة للمعاش، لكن الله كان

رحيما به ولم تطل رقدته. أخبرهم الطبيب بضرورة إجراء عملية جراحية.

تقدموا بالأوراق لإجراء العملية على نفقة الدولة فأخبرهم الموظف ببرود آلي أن عليهم الانتظار لستة أشهر قادمة أو محاولة إيجاد واسطة تقرب الموعد ولما لم يجدوا الواسطة وافقوا على الانتظار. لكن الموت لم يوافق..

مات سليمان الصياد وتركها وحيدة بلا أهل وبلا زوج وبلا أبناء وبلا وطن.

هذه المرأة التي مازالت قادرة على التسامح والرضا هي التي تستحق الانبهار يا سارة.

هذه المرأة وليس شابلن.

أعلم أني أثقلت عليك كالعادة ولا أعلم إن كنت سأنجح في تخفيف وطأة الحزن في رسائلي أم لا.

لكن لندع ذلك للرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة التاسعة والثلاثون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

حسنا ياحضرة الباشا الضابط..

عليك أن تدرك أن هناك أشياء لا يسعنا فهمها بالعقل وحده،

فمثلا حين رفع قلبي رايات الاستسلام أمام إغواء سحرها كان علي فقط أن أصدقه.

لماذا أستمر في إرسال رسائل لا أتلقى ردا عليها؟

لماذا برأيك؟

ألأمنحك التسلية التي تبحث عنها كي تؤجل اعتقالي؟

سؤال (لماذا) حين يرد في سياق الحب يا حضرة الباشا الضابط تصبح كل إجاباته كاذبة.

في البدءِ كانت رسائلي إليك يا سارة مجرد تعبير عن الحب..

تواصل..

فضفضة..

محاولة لقضاء أطول فترة ممكنة معك،

أما وقد وصلنا هذا الحد فقد أصبحت الرسائل كل حياتي..

أدقها وأجلها وأولها وآخرها ماعلمت منها وما لم أعلم وأمست الحياة كلها لا تعني لي أكثر من نوعين من الأشياء.. أشياء تستحق أن تحكي لك في رسائلي، وأخرى لا تستحق.

كما بدأت أكون أكثر انتباها وأشد ملاحظة كي لا أفوت أي تفصيلة يمكن أن أرسلها لك، واكتشفت أن كل ما يحتاج المرء أن يتعلمه فإن الحياة ستعلمه إياه شريطة أن يحسن الإصغاء، لأن من لا يحسن الإصغاء لهمسات الحياة فإنه يدفعها لأن تصرخ في وجهه..

صحيح أن الأمر لا يكون بالسهولة التي أصورها وأن عدم الاستماع للهمسات لا ينجم دائما عن سوء الإصغاء بقدر ما يكون رغبة خفية في عدم التصديق.. أملا ضئيلا في ألا تكون الحياة بهذه القسوة واللامبالاة.

لكن ما يحدث في العالم الآن يشي بأن هناك سوء إصغاء وتجاهل عظيم ليس فقط لهمسات الحياة ولكن لصراخها أيضا.

أنا لا أحب هذا العصر يا سارة..

لا أحتمله..

لا أحتمل أن يتحول كل شيء إلى إما بيع وإما شراء..

في الغرب يقولون: إن الطبيب النفسي إن هو إلا صديق مدفوع الأجر.

لايوجد صديق مدفوع الأجر يا سارة.

كما لا يوجد دائرة مربعة ولا مثلث مستطيل لايوجد صديق مدفوع الأجر.

لقد أصيب العالم بالجنون،

قبل أمس كنا في ذلك المكان البغيض المسمى (كارفور) عماد وجودي وأنا أثناء خروجنا سمعت جودي تقول لأبيها: أنت كل حاجه تقولي عليها لأ.

وجه نظري أن كان بيدها حقيبة بها ما لا يقل عن عشرة أنواع من الحلوى والبسكويت لكنها رغم ذلك كانت المسكينة على حق.

ففي المقابل رفض أبوها شراء عشرات الألعاب والحلوى والشيكولاتة.

عندما أقارن أبناء هذا الجيل بجيلي أجد أنهم مساكين حقا مساكين فقد كنت أحاول أن انفق الجنيه الذي أحصل عليه من أبي لدى عم جلال ولا أستطيع إذ كان أقصى ما أجد في دكانه نوعين من البسكويت والبونبون ولم يكن لديه شيكولاته ولا عصائر من الأصل.

ورغم ذلك كنت أخرج من عنده وكلي بهجة وفرح وقد اشتريت كل ما طالته يداي.

أما جودي المسكينة فكيف تشعر بالرضا وقد تركت وراءها المئات والمئات من الحلوى والألعاب. وحتى لو جن أبوها واشترى لها كل ما ترغب فيه متى ستجد الوقت لتذوقه؟ وأي معدة وأي أسنان ستتحمل هذا الكم؟ وعندما تنتهي من تذوقها كلها هل ستتذكر مذاق كل منها وتستطيع أن تحدد أيها أعجبها أكثر أم أنها ستكون في حاجه للتجربه مرة ثانية وثالثة وألف في دائرة ملعونة لا فكاك منها.

هل أسدت لنا الحداثة معروفا ياسارة عندما أطلقت علينا هذا الشلال الهادر من الاختراعات والاكتشافات أم أنها ألقتنا في غيابة جب عميق من المفاضلات والخيارات والمساومات والقلق والحيرة والتردد والنهم؟

حيث يظل المرء حبيس رغبة محمومة في الوصول للأفضل الذي لا يأتي أبدا لأنه ببساطة لم يجرب كل شيء.

يقول لنا الاقتصاديون: إن الاختراعات تتزايد لأن الحاجات الإنسانية من طبيعتها أن تتكاثر وتتزايد وتتطور باستمرار لكنهم لم يقولوا لنا لم علينا أن نستجيب لهذا التزايد بدلا من أن نكبح جماحه؟

لماذا لانصدق أنه لا سبيل أمامنا للسيطرة على الطبيعة وأنها تجرنا خلفها بقضيب من الصلب وأن الفجوة بيننا غير قابلة للرتق وأننا لا نجني من الإسراع إلا اللهاث وتعجيل النهاية؟

ولماذا لا ينقل حضرة الباشا الضابط بعض أسئلته من الحب إلى الأشياء الأخرى؟ لماذا لم يسأل نفسه مثلا: لم علي أن أمتلك سيارة تتسارع من الصفر إلى المائة فقط في تسع ثوان؟

ألهذا علاقة بشعور مضمر أننا نعيش في سباق؟ حيث يلهث المرء وتنقطع أنفاسه فقط من أجل أن يظل في مكانه ولا يتقهقر.

أعلم يا حضرة الباشا الضابط أنك تقول الآن متسائلا: كل هذا من أجل حديث طفلة لأبيها؟

لا عليك يا سارة فكما تعلمين أنا لا أمل عندي في أن يفهم والمهم أنك تفهمين. أما إن كان لديك أنت يا حبيبتي أية أسئلة فسأجيبك عنها ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

لكن لندع ذلك للرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الأربعون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

يطالبني حضرة الباشا الضابط أن أحب غيرك

(أحب غيرك!)

إنها جملة بلامعنى!

أنا لا أحبك يا سارة..

نعم الجملة السابقة صحيحة تماما.

أنا لا أحبك..

الشعور الذي نشأ بيني وبينك ليس حبا وإنما أسميه هكذا مجازا..

هو شعور خلق خصيصا لأجلك..

ليناسبك..

ليتماشى فقط مع منحنيات روحك الشفافة وسحر عينيك وبراءة قلبك.

إن حضرة الباشا الضابط لا يفهم أن الحب ليس كالبيت إذا غاب ساكنه يمكنه أن يستقبل ساكنا جديدا. حتى ولو بصعوبة..

الحب شيء آخر.. الحب شعور شديد الخصوصية مضفر بعمق بتفاصيل الحبيب.. هنا كان يضحك، وهنا كان يتألم، وهنا كان يصمت، وهنا كان يتكلم، وهنا وهنا وهنا...

فإذا غاب الحبيب لم يعد هناك حب.. لم يعد هناك بيت.

الذين يطالبون العاشق أن يحب من جديد ويواصل حياته مع محبوب آخر والذين يعيبون الحب من طرف واحد يظنون أن الحب علاقة نفعية. وكأننا بإرادتنا نحب أو نختار من نحب، لا يعلمون أن الحب عطاء دائم ومتواصل.. رغبة ملحة في الفناء في الحبيب وبه ولأجله.

لايدركون أن الحب هو أن تتعطل قوانين الطبيعة والمنطق.. أن تصبح الاثنين + اثنين.. خمسة أو ثلاثة فقط لأن ذلك يسعدك.

أن تصبح أيام الأسبوع خمسة أو أربعة.. أن يأتي الخميس بعد الثلاثاء مباشرة.. فقط لأنني لم أرك بينهما (هل يجعل هذا أيامي والعدم سواء؟)

لا يعلمون أنك إذا أحببت يعني أن شمسك لا تشرق إلا إذا أذنت لها ابتسامتها لا يعلمون أن ابتسامة واحدة قد تعني كل السعادة وكل الحياة وكل الأمل، وأن تنهيدة حزينة واحدة قد تحيل الهواء إلى أشواك وشظايا بلور وحبات رمل ساخنة تلهب الروح والفؤاد.

لا يعلمون أنك حين تغيبين أصير معلقا في منطقة رمادية بين الحياة والموت، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء الذين يعيبون الحب من طرف واحد لا يعرفون الحب يا سارة..

لذا دعك منهم فلا أمل لي في أن يفهموا.

لكن ماذا عني؟ أليس هناك أي أمل أن أجد إجابة على ذلك السؤال الذي يملأ عليَّ نفسي. ويمنعني من النظر إلى الحياة فلا أراها سوى على أنها محض محنة متواصلة؟

لماذا ياسارة؟

لماذا أنت لست معي الآن؟

أتمنى إن كانت ثمة إجابة لديك أن تخبريني إياها قبل الرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الحادية والأربعون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

عندما قرأ عماد مذكراتي (وهو الوحيد الذي اطلع عليها بالمناسبة إذا تجاهلنا تلصصات أمي الصامتة عليها)

أعادها لي قائلا باستنكار: هذه ليست مذكراتك ولا قصتك هذه قصة سارة.

رددت عليه مستنكرا استنكاره: أهناك فرق؟

أجابني بضيق: أنت تبالغ جدا يا يحيى.. لا أحد يمتزج بأحد إلى هذا الحد.. لا أحد يموت لفراق أحد يا يحيى.. أنت مجنون حتما.

أجبته بهدوء: تقصد لا أحد يدفن لفراق أحد..

الدفن.. الاعتراف بالموت فقط هو الذي يتأخر..

لماذا تصر على الإنكار؟

أنت نفسك مت بعد رحيل والدك أو على الأقل مات معظمك.

نظر إليَّ نظرة ملتاعة مصدومة كأنما نظر فجأة في المرآة فلم يجد إلا نصف جسده!

وابتلعنا صمت طويل ممتد..

مأساة عماد يا سارة أن الغربة قد فرمته إلا قليلا.. وهذا القليل مازال يقاوم كغريق يصارع أمواجًا عاتية وكلما هم بالاستسلام أمد إليه يدا هزيلة لا تقوى على انتشاله ولا تتركه للغرق.

أتدرين ما المشكلة؟

المشكلة أن الذين تحولوا بالكامل كحضرة الباشا الضابط والذين يخوضون معركتهم الأخيرة ومازلوا يقاومون كعماد كلاهما لا يحب الاختلاف..

المختلفون يعرون المجتمع، يكشفون زيفه وزيف قوانينه، يفضحون تناسقه المزعوم، يضعهم الاختلاف أمام المرآة فيلمحون انعكاس الحقيقة على وجهه واضحة.. صريحة.. تخبرهم أنه ليس صحيحًا أن كل شيء قابل للتسعير كما زعموا وأن المنح بلا مقابل جائز وممكن وأنه أزكى للروح وأطهر وأن أشياء كالتضحية والنبل والإيثار لا يمكن قياسها حقًا، لكن هذا لا ينفي كونها حقيقية وموجودة ومهمة لمواصلة الحياة كبشر وأن تضييع العمر في عمل لا نحبه خطأ فادح حتى ولو كان لأجل المال وأن الحياة ليست سباقًا ندهس في سبيله كل شيء ولا ينبغي أن تكون.

الاختلاف مزعج يا سارة، لذا فإننا نعمد إلى نبذ المختلفين.. إما عن طرق نعتهم بالجنون أو الخيانة أو الهوس وإما عن طريق صلب أحلامهم البريئة على جدران المعتقلات كما يفعل حضرة الباشا الضابط. وليس من المهم أي طريقة سنتبعها لنبذهم لكن المهم ألا يذكرنا أي أحد أن إنسانيتنا تتلاشي حتى يتم الأمر بهدوء وننجح في التحول لعناصر إنتاج ماهرة.

في نقاش قديم مع صديقي إبراهيم الذي استثنيته مؤقتًا من قاعدة أن كل الأثرياء أوغاد بالضرورة، حين اعترض على قولي أن المجتمعات الحديثة لا تقبل الاختلاف لم يفهم ما أعنيه بالاختلاف. أنا لم أقصد أن هذه المجتمعات لا تقبل وجود الثوري والإصلاحي و اليميني واليساري.. ليس هذا ما أعنيه.. لكن ما عنيته وقتها أن تلك المجتمعات تمتلك قالبًا نموذجيًا لكل نمط من أنماط الحياة.. هناك قالب الثوري وقالب المناضل وقالب المفكر وقالب العاشق وحتى الفاشل له قالب ينبغي ألا يحيد عنه.

وحيث إن هذه المجتمعات مجتمعات استعراضية.. يستمد المرء فيها رؤيته لنفسه من آراء الآخرين فإنه لا يستطيع التصرف خارج توقعاتهم. كما أنه يخشى تعليقاتهم السلبية عليه ولذلك فهو يخاف أن تظهر غرابته أمامهم، يخاف أن يتم نبذه بقسوة ويسعى نتيجة هذا الخوف لمحاكاة النموذج المتفق عليه.. وفي سبيل هذا السعي فإن الإنسان مع الوقت يتلاشى.. تختفي ملامحه ولا يتبقى منه

سوى ما يريده المجتمع.. لا يتبقى منه سوي ما يرفع كفاءته كعنصر من عناصر الإنتاج.

سامحيني يا سارة..

أعلم أنني لا ينبغي لي أن أواصل إزعاجك بمثل هذا الكلام السخيف في كل الرسالة. لكن هذا ما يحدث حين أحاول الهرب من وطأة ذلك السؤال الممض الذي أطبق فكيه على روحي بلا رحمة..

لماذا أنت لست معي الآن ياسارة؟

وكالعادة سأبقى على ذلك الأمل الخافت في أن أحصل على إجابتي قبل الرسالة القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثانية والأربعون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

آه يا سارة كم أنا مثقل بالهم!

لو أن هناك سبيلا لأخبرك كم أورثني غيابك من أسى!

أعلم أن ثمة أشياء لاسبيل للبوح بها وأشعر أن كل تلك الأشياء اجتمعت في قلبي وحدي دون الناس.

تعلمين يا حبيبتي أن المرء لا يستطيع العيش بين الناس دون حد أدنى من التوقعات.

ولعل هذا ما أراد خيري بشارة قوله في فيلم "إشارة مرور" في مشهد ضرب عماد رشاد على قفاه فجأة وبلا مبرر ولعله يشرح هذا الكم الكبير من الحزن الذي اعتراه أيضا.

يتوقع المرء حين يمشي في الشارع ألا يعتدي عليه أحد وإن حدث هذا فلابد أن يكون استثناءً يا سارة وإلا استحالت الحياة بين البشر.

لكن ما العمل إذا كان كل ما يتوقعه المرء لا يحدث؟ البتة؟!

كل ما يراه مهما يراه الناس تافها وكل ما يراه جميلا يراه الناس بلا فائدة وكل ما يراه ضروريا يراه الناس محض رومانسية ساذجة

أي حياة ترجى في هذا الوضع!

هل يمكن أن تكون الوحدة أكثر من ذلك الشعور بالـ.. بتر؟ وكأنك عضو مبتور من جسد له الصفات الوراثية نفسها، وله لون البشرة نفسه، بيد أن كل سبيل للوصل بينهما قد قطع.. الشرايين.. الأوردة..الأعصاب.. كل شيء تم تمزيقه بمهارة واقتدار.

يقول إبراهيم لعماد وهو يحثه على تجاوز مأساة موت أبيه: حاول أن تنسى

فيجيبه عماد بحيرة صادقة: وماذا لو أن قلبك يرى كل محاولة للنسيان وكأنها محض خيانة؟

لم أفهم أبدا ياسارة أولئك الذين يتحدثون عن النسيان وكأنه أمر خاضع للرغبة أو للإرادة.. قد أتفهم أن ينسى المرء ماذا حدث في زيارته لطبيب الأسنان أو في محل الأحذية أو عند نبيل الحلاق

لكن ماذا عمن تغلغلوا في جميع تفاصيل الحياة ولحظاتها؟

ماذا عن الذكريات التي حفرت أخاديد وأنهار وآبار في أعمق أعماق الروح؟ تلك الذكريات التي يصطلي القلب بلهيبها كلما هبت ريح محملة برائحتها

حين أسمع ذات لوعة أغنيتك المفضلة.. حين أهم بارتداء القميص الذي أثار إعجابك ذات بهجة.. حين تطل عليَ من المرآة صورتك التي سكنت بؤبؤ عيني منذ الأزل..

إننا لا نقوى على النسيان ولا نرغب فيه. إن الأحبة والراحلين قد تركوا لنا في كل تفصيلة من تفاصيل حياتنا جزءا منهم.. فإن نحن نسيناها ماذا إذن سوف يتبقى لنا؟!

أتعلمين!

لقد خطر لي الآن سؤال مهم.. ماذا لو أن الحياة سارت بعكس الاتجاه؟ كما حدث مع بنجامين بتون في رواية فيتزجيرالد "ذا كيوريوس كيس اوف بنجامين بتون"

أن نولد كهولا بقامات محنية تحت وطأة الآثام والأحزان واليأس ثم تنفرد هاماتنا ونتخفف من حملنا رويدًا رويدًا في طريقنا نحو الشباب والطفولة.. أن نكتسب البراءة خلال الرحلة بدلًا من أن نفقدها، أن تكون الطفولة هي محطة الوصول لا الانطلاق، حيث الدهشة الطازجة ذات الأسئلة المستأنسة القانعة الراضية بدلًا من تلك الأسئلة المتوحشة التي تنهشنا في حياتنا الحالية.

أن تبدأ العلاقات بالفقد والحنين ويهون علينا الأمر معرفتنا أننا بعدها سنجد الغائبين ونعثر عليهم. ثم نصل إلى المرحلة التي لم نكن نعرف فيها بعضنا فتنمحي الذكري من وجداننا بخفة وهدوء

دون أن نتعذب بما يخلفه الفراق في حياتنا الحالية من بقايا حياة الراحلين.

ما رأيك يا سارة؟

ألن تكون تلك الحياة أجمل أو أقل بؤسًا على الأقل؟

ألا يكفي أنني في مثل تلك الحياة لن أضطر لتكرار ذلك السؤال الموجع الممض؟

لماذا ياسارة؟

لماذا أنت لست معي الآن؟

يبدو أنه لا أمل في الإجابة حتى هذه اللحظة، فإلى اللقاء في الرسالة القادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثالثة والأربعون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

في مشهد من أعظم ما رأيت في السينما أشارت جيني إلى طفلها الصغير وأخبرت فورست جامب أنه ابنه أيضًا!

تراجع فورست خطوتين للوراء وسأل بخوف وقلق: هل هو ذكي؟

وكان يقصد: أتمنى ألا يكون مثلي! (أي مجتمع يدفع المرء لهذه الرغبة ياسارة؟)

نظرة فورست ونبرته حين سأل لا يمكن نسيانها.. نظرة تعكس كل المعاناة التي عاشها هو والتي يمكن أن يعانيها أي شخص "مختلف" يعيش في هذا المجتمع القاسي الذي لا يتورع عن افتراس المختلفين وسحقهم بغية الحفاظ على غروره وغطرسته الزائفة وانسجامه المزعوم.

كانت براءة فورست وقدرته الفذة على المنح والبذل والغفران تعري الآخرين وتفضحهم فلجأوا للسخرية منه ووسمه بالغباء.

عندما أجابته جيني بالإيجاب أنه من أذكى التلاميذ في فصله توقفت كثيرًا أمام إجابتها.

هل كان على فورست أن يفرح ويطمئن بهذه الإجابة أم العكس؟ هل كان عليه أن يفرح لأن الطفل كان ذكيًا مثل زملاء المدرسة الذين كانوا يلقون والده بالحجارة؟ ومثل الأشخاص الذين حكى لهم حكايته في محطة الأتوبيس فسخروا منه وكذبوه؟

هل كان فورست غبيًا ياسارة؟ ألأنه لا يجد ضرورة للكذب؟ وكان يلتزم بوعوده فظل يعطى عائلة صديقه بوبا نصف عائدات شركته؟ وكان يسامح ويغفر ويقول كل ما يشعر به دون خبث أو مكر؟ ولأن النقود لم تستطع أن تمتلكه كما فعلت بنا؟ ألأنه كان مختلفًا عنا في كل شيء نعتناه بالغباء؟

أتدرين؟

كلمة السر في شخصية فورست هي (التفاني) كان لدى هذا الفورست قدرة هائلة على منح نفسه بالكامل للشئ الذي يحبه. كل خلجة من خلجاته وكل نفس وكل نبضة قلب.. يمنحها لما يحبه برضا وسرور.

أحب كتيبته وزملاءه فأنقذهم جميعًا تحت القصف برغم إصابته.. أحب تنس الطاولة فمنحه كل وقته لدرجة أنه كان يلاعب نفسه حتى أصبح أعظم لاعبيه.. وأحب "بوبا" فأنشأ الشركة التي كان يحلم بها بدلًا منه.. وظل ينزل لعرض البحر كل يوم دون أن يصطاد شيئًا حتى كافأته السماء على تفانيه وصارت شركته أكبر شركة في البلاد.

وأحب جيني فظل يغفر، ثم تخذله، فتعود فيغفر فتخذله، فتعود فيغفر، وكان يستطيع أن يستمر هكذا إلى ما لا نهاية.

وعندما سألته ذات مرة على تلك القدرة العظيمة على الغفران أجابها بعفوية: "أنت فتاتي".

هكذا بمنتهى البساطة ينظر فورست إلى جيني، هو يحبها.. هي فتاته.. إذن لا أهمية لأي شيء آخر.. ترحل أو تعود.. تغيب أو تحضر.. هي دائمًا معه.. تسكن قلبه وروحه وسيظل دائمًا في انتظارها. هذه هي فلسفته في الحياة، يصدق قلبه ويمشي ورائه..

حين شعر بحاجته للعدو بدأ في العدو وأخذ يعدو ويعدو ويعدو.. أخذ يعدو ليلًا ونهارًا بلا انقطاع.. عندما يشعر بالجوع يتوقف ليأكل وعندما يشعر بحاجته للنوم ينام وعندما شعر بالتعب توقف.. هكذا بمنتهى البساطة.

هو لا يعرف الكراهية، ولم يفكر يومًا في الانتقام، ولا يفهمه،

لا يجيد حسابات المكسب والخسارة، لا يطالب الحياة بشيء،

وفي المقابل فإنها لا تطالبه بشيء ولا تلح عليه بالأسئلة.

ولذلك عندما كانت تغيب عنه جيني كانت حياته تسير به هادئة راضية ولم يتوقف يومًا ليسأل نفسه ذلك السؤال الذي يحيل حياتي جحيمًا ولا أجد منه فكاكًا ولا مهربًا..

لماذا يا سارة؟

لماذا أنت لست معي الآن؟

ولأني لست كفورست ولا أستطيع

سأبقى على ذلك الأمل الخافت في أن أحصل على إجابتي قبل الرسالة القادمة.

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الرابعة والأربعون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

ها أنا أعود من جديد..

ربما أتجرأ وأقول أن هناك ما يجعل رسائلي إليك مميزة يا سارة،

إنه الصدق.. دومًا كانت كلماتي إليك صادقة صدق الدم الطازج ينزف من جرح عميق وكتابتها كانت دومًا بديلًا وحيدًا عن الانهيار.

على سيرة الصدق يجب أن أخبرك أن العبارة السابقة ليست لي ولكنها للأديب الجميل الأستاذ علاء الديب.. كتبها في مقدمة سيرته الذاتية التي وضعها في نهاية الكتاب!

تسحرني كتابات علاء الديب يا سارة.. كتاباته الصادقة جدا جدا حد الوجع. الأبطال الذين يعانون من الحيرة والقلق والمثالية والخذلان.. أحداث الروايات المفعمة بالمشاعر والحزن الشفيف الوقور والألم.. كل هذه الأشياء تأسرني وتسلب لبي. بعض الناس يعيب على الرجل جرعة الحزن والكآبة الزائدة التي تميز كتاباته لكني أعذره و أستغرب كيف يعتبون على رجل يكتب بهذا القدر من الصدق؟ رجل يكتب بروحه وقلبه وأعصابه وأوردته.. أعذره

وأفهمه وأحبه أيضا. أرى فيه وفي أبطاله الذين يودعهم جزءا من روحه شبها كبيرا من أبي.. الرجل المثقف المثالي اللماح.. عينه مدربة على التقاط أدق التفاصيل وإدراك التناقضات.. يئن تحت وطأة قيمه ومبادئه في مجتمع لا يعترف بأي قيم أو مثل عليا.. يحمل ضميرا يقظا حساسا جعله يترفع عن خوض المعارك اليومية من أجل أشياء لا معنى لها ولا جدوى منها فيجد نفسه وحيدا وغريبا ليس له مكان في هذا العالم المصاب بالسعار والشراهة والنهم.

يدرك أن الدنيا.. دنيا.. فيقرر اعتزالها، تقتله الأسئلة الكبرى التي تزيدها الإجابات تعقيدا، يمارس الكتابة بحثا عن نفسه ومعنى الوجود من حوله فتأتي كتاباته مثله قلقة.. حيرانة.. حزينة.. لكنه ليس الحزن الزاعق المنفر. بل حزن رقيق شفيف يزيده إنسانية وألقا.

هذا هو أبي. وهذا هو علاء الديب وأبطال رواياته.. المثقف البرجوازي المبتلى بصفات الطبقة المتوسطة.. الحالم الرومانسي الذي تحطمت أحلامه لأسباب لا دخل له بها فلاذ بالحزن والكتابة. ويستكثر عليه بعض الناس أن يبعثر نفسه على الورق ويمارس بعض البوح عله يجد فيه يوما بعض السلوى والعزاء.

سارة.. لا مزيد من المراوغة.. أنا حزين أيضا. والحزن كالحب لا يحتاج لأسباب.

أرجوك لا تفعلي مثل أمي وتعددي لي أسباب السعادة والنعم التي حباني الله بها فأنا أحفظها أكثر من أي شخص آخر وأحمد الله عليها كثيرا. لكني رغم كل هذا حزين!

في البدء كان الحزن يا سارة ثم أتت بعده جميع المشاعر. وهو رغم قسوته إلا أن المرء لا يملك سوى أن يحترمه ويوقره. تتلاشى الكلمات من رأسي كـ (لا أجد تشبيها مناسبا).

لا أدري ما هذه اللعنة التي أصابتني.. عجز تام عن الكتابة. وكلما فكرت في الأمر تعقد أكثر، وكلما أرغمت نفسي على الكتابة تأتي الكلمات ركيكة.. ملفقة.. منزوعة المعنى كأنها نقوش وطلاسم.

قبل أسبوع كنا في جنازة أحدهم. - يا لسخافتي اللواء حامد عبد الرازق الذي كانت تهتز له المحافظة كلها يصبح أحدهم- هل هي سخافتي أم سخافة الموت؟

الموت!

لم يعد للموت جلال.. أصبح كأعراض البرد والصداع.. لم تعد زيارته مفجعة أو مربكة. أصبحنا ننظر له باعتياد بينما نمارس طقوس حياتنا العادية، نتناول العشاء أو نشاهد فيلمنا المفضل، ثم دفعا للملل أثناء انتظار الشاي أو في الفواصل الإعلانية، نتبادل الأنباء عن عدد القتلى الذي سقطوا اليوم.

أعجز باستمرار عن إدراك الموت بشكل كامل. كلما تفكرت فيه تتشكل صورته في ذهني تدريجيا على هيئة قطع من البازل تتجمع حول بعضها وقبيل اكتمال الصورة تنهار فجأة مخلفة في ذهني صورة ضبابية غير واضحة.

أحيانا تقف شدة الوضوح والقرب عائقا أمام جلاء الرؤية.. أقول هذا لنفسي وأكف عن التفكير.. الاستسلام هو الحل.. اللاحل هو الحل.. في المقابر أتأمل الحفرة على يساري.. قبر جديد فاغر فاه في انتظار وجبته القادمة.. يالله.. كل هذا الصراع والحروب واللهاث والعدو والاحتقان والتوتر والقلق والمشاحنات والتدافع من أجل هذه الحفرة!

يمنحني التفكير في الموت بعض الرضا! لكنه لا يمحو الحزن. أحمل حزني وأجوب دروب الحياة راضيا وقانعا ومرددا: أنا إنسان وأعيش في هذا العصر لا حل لذلك. لقد خيرني الله منذ الأزل وقد اخترت وعلي أن أتحمل مسؤلية اختياري صحيح أنني لا أتذكر هذا الموقف لكن الله يقول أنه حدث وأنا أصدق الله.

أتدرين؟

أنا أرى أن جوهر سردية الإيمان أن يتبقى من السردية جزء غامض وغير منطقي وغير مقنع ومع ذلك يصدقه المرء فقط لأن الله أخبره به.. لا حجج ولا أسباب ولا مقدمات منطقية.. فقط الله.. أنا لم أجد الله بعقلي.. بل أجده بداخلي.. أجده في عشقي

لك.. في حسنك الملائكي.. في ضحكات الأطفال.. في رائحة الارض بعد المطر.. في شقشقة الفجر.. في تلك النظرة التي أهدتني الوجود ذات حب. أتذكرينها؟!

أنا أذكرها.. أنا لا أنساها أو بالأحرى لا أستطيع نسيانها.

كل همسة.. كل التفاتة.. كل نظرة.. كل مادار بيننا يسكن أعماقي ويختبئ في تفاصيل حياتي، هو فقط يتحين اللحظة المناسبة كي يطفو من جديد.. رنين الهاتف.. أغاني منير.. قميصي الكحلي.. آذان الفجر.. أيا من هذه الاشياء يكفي كي تشتعل اللهفة، كي تنبعث الذكري كعملاق هائل يسد أمامي جميع الدروب ولا يترك لي سوى درب الحنين.

أنا لا أقوى على النسيان يا سارة ولا أريده.. أريد فقط إجابة وحيدة على هذا السؤال.. لما أنت لست معي الآن؟

فهل هناك أمل أن أحصل عليها قبل رسالتي القادمة.

هذا طبعا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الخامسة والأربعون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

منية القلب وبهجة الروح ومعنى الحياة

الجميلة البهية النقية سارة..

هل تذكرين فيلم "جيم كاري" الشهير "فن ويز ديك آند جين" الذي ظننا انه مأخوذ من فيلم "عصابة حمادة وتوتو."

يومها سألتني باستغراب: يحيى ألا تلاحظ التشابه الكبير بين هذا الفيلم وبين فيلم عصابة حمادة وتوتو؟ هل يعقل أن يكون مقتبسا منه؟؟ كم كانت لذيذة هذه الفكرة.. فكرة أن يقتبس منا الغرب شيئا ما حتى ولو كانت فكرة فيلم هزلي.

للأسف بالامس أكتشفت أن فيلم جيم كاري هو نسخة حديثة من فيلم أمريكي يحمل الاسم نفسه أنتج عام 1977 أي قبل خمسة أعوام من الفيلم المصري.

كثيرا ما أسأل نفسي سؤالا.. ماذا سيخسر العالم لو اختفت هذه المنطقة؟ ماذا سيحدث إذا استيقظ الكوكب في الصباح فوجد نفسه بدون شرق أوسط؟ هل سيفتقد الغرب شيئا غير بعض الأماكن التي تؤمن له التعذيب للخارجين عن قوانينه؟؟

أخشى أن الإجابة ستكون مزعجة ككل الحقائق.

على ذكر الإزعاج ألم تلاحظي معي أنني لم أعد آتي على ذكر حضرة الباشا الضابط سوى في نهاية الرسالة فقط؟

حسنا..

هذه هي سياستي الجديدة إزاء منغصات الحياة من أمثال الباشا

أو بالأحرى إزاء الحياة برمتها.. الحياة في العموم عبارة عن لغز كلما حاولنا فكه تعقد.. الحياة في حد ذاتها (مأزق مرير) ومن حيث كونها كذلك فإن أفضل وسيلة للتعامل معها هو التجاهل.

أو كما قال وودي آلان (التشتيت). في كتابه حالة الاستثناء يؤكد جورجيو أجامبين أن النظام الحالي يستطيع في لحظة وبمجرد قرار يصدر من السلطة أن يمحو إنسانية الإنسان ويقوم بسحقة بلا رحمة من أجل انقاذ شيء خيالي اسمه الدولة.

وفي كتابات "زيجمونت باومان" يشرح لنا كيف نجحت بيروقراطية الدولة.. والتكنولوجيا في تحويل الإنسان إلى وحش عقلاني يضغط على زر بينما يتناول الآيس كريم أو كوب القهوة فيطلق قنبلة تقتل مئات الأطفال والنساء والعجائز دون أن يثير هذا فيه أدنى ذرة من تأنيب الضمير.

يشرحان كل هذا دون أن يقولا لنا ما الحل؟ ما البديل؟

أتدرين لمَ؟

لأنه ببساطة لا يوجد حل.

للأسف يا سارة الحياة بوصفها "مأساة" لا توجد إجابة متفائلة حول قسوتها في هذا العصر. ومهما تحدث الفلاسفة وعلماء الدين أو الاجتماع أقصى ما يستطيعون فعله هو شرح الطريقة التي تسير بها الحياة. وأنه لا أحد يعيش كما يريد وأن الحياة أقدار وأن... وأن... لكن لا أحد يجيبك على السؤال المهم.. لماذا؟ لماذا كل هذا الهم؟ كل هذا الدم؟ كل هذا الألم؟

كل من يحاول أن يقنعنا أن الحياة تستحق العيش وأن الحياة لها معنى لا يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يخدعنا ويكذب علينا. لأن الحياة ببساطة ليس لها معنى..

كيف أصدق أن الحياة لها معنى وأنت لست معي يا سارة؟ كيف يكون للحياة معنى وكل شيء مصيره إلى الزوال؟ كيف يكون للحياة معنى والموت يمتلك كل هذه السطوة وذلك الجبروت؟

حينما كنت أقرأ كتاب الخالدون مائة ولما وجدت أن معظم العظماء الذين ذكرهم الكتاب عاشوا حياة بائسة ولم يحظوا بالتكريم والاحتفاء إلا بعد وفاتهم. تساءلت وقتها عن الفرق بين هؤلاء العظماء وبين البؤساء الآخرين؟ وبم سينفعهم التكريم بعد الموت؟ هل تجدين لهذا الأمر أي معنى؟

صدقيني يا سارة..

في حياة تسير بنا بلا هوادة في طريق وحيد نحو المزيد والمزيد من الفقد ليس هناك سوى "التشتيت" و عدم التركيز كأنجع وسيلة لاحتمالها.

ولذلك يحب الإنسان الإبداع.. الإبداع يشتتنا.. نجيب محفوظ ديستويفسكي فان جوخ هانز زيمر عاطف الطيب دانيال دي لويس كل هؤلاء المبدعين يقومون بتشتيتنا.. هم من يقومون بإرسالنا بعيدًا. حيث نحصل على هدنة من التفكير بالأشخاص الذين فقدناهم والفرص التي أضعناها والآثام التي ارتكبناها، نحصل على استراحة مؤقتة من الواقع المكدس بالخذلان والطمع والظلم.

رسائلي إليك أيضًا تقوم بتشتيتي.. تجعلني أصدق أننا مازلنا نتواصل.. وأنك تقرأين ما أكتب وتكترثين لأمري وتذكرينني.

رسائلي إليك تعينني على الاحتفاظ بذلك الأمل الهزيل بأن أحصل قبل رسالتي القادمة. على إجابة لسؤالي المكرر المرير

لماذا أنت لست معي الآن يا سارة؟

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السادسة والأربعون

عزيزتي سارة..

مساؤك سكر..

لو كنت معي الآن! كي أتوكأ عليك وأهش بك على ما تبقى من أحلامي قبل أن تتلاشى كليا.

أنا متعب ياسارة.. منهك..

أنهكني اللهاث خلف حب لا وجود له سوى في رسائل بلا صدى وأنهكتني الحياة في عالم لا هم له سوى أن يهدم كل ما نؤمن به.

أنظر إلى عمري بتمعن فأكتشف أنه كان عبارة عن مسيرة ممتدة من اللا شيء، كل ما تربينا عليه من قيم ليست أكثر من مجرد هراء وترهات لا وجود لها سوى في الكتب المدرسية وأفواه الآباء والأمهات.

زملاء العمل يكرهون المدير الجديد لأنه يدقق على الحضور والانصراف في حين أنهم يشعرون بالملل إذا قضوا الساعات الست بأكملها في العمل ولذلك رفعوا شكوى لوكيل الوزارة يطالبون بنقل المدير وزيادة رواتبهم.

صديقي الذي كان يغسل يديه قبل الأكل وبعده أصيب بفشل كلوي ووالده الذي يدخن ثلاثين سيجارة في اليوم هو الذي يحمله إلى المستشفى أسبوعيا.

وعم غنام تلقى خبر وفاة ابنه المجند في سيناء بينما كان عم غنام نفسه يرقص على أنغام تسلم الأيادي في المظاهرة التي نظمتها المحافظة للاحتفال بعيد تحرير سيناء وصنافير وتيران فأصيب بلوثة وأخذ يبكي ويولول لكنه لم يتوقف عن الرقص!

أما خالد شقيق إبراهيم صديقي الذي استثنيه من قاعدة أن كل الأثرياءِ أوغاد بالضرورة فقد حصل على إعفاء من التجنيد الإجباري لأن والده لا يحبه أن يبيت خارج المنزل لكن الضابط الذي حرر شهادة الإعفاءِ رفض أن يكتب هذا السبب في الشهادة وفضل أن يكتب بدلا منه "غير لائق نفسيا".

هل للمبادئ دور في حياتنا سوى تكبيلنا كقربان يعد للذبح يا سارة؟

الوطنية .. الثورة .. التضحية .. الحرية .. العدالة .. الخير.. كل المبادئ التي نشأنا عليها نراها الآن مصلوبة أمام أعيننا على قارعة الطريق ولا نملك الا أن نحدق فيها مذهولين، ثم نبكي، لكن حتى البكاءِ لم تعد مآقينا تجود به بسهولة.

كيف لإنسان يحمل بداخله أي معنى أن يتحمل الحياة في هذا العالم العابث السخيف البشع؟ حيث كل شيء يبدأ لينتهي.. يولد ليموت.. يأتي ليرحل. أين الحقيقة؟ هل الضحايا الغارقون في دمائهم الذين نشاهدهم كل يوم هم الجناة حقا؟

ما معنى الجملة السابقة؟

هل الحلم خطيئة؟

ما الرابط الخفي بين الواقعية وموت الضمير؟

أتدرين يا سارة!

أخشى ما أخشاه هو الاعتياد. أن تصبح مشاهد القتل والأشلاء والدم والظلم مشاهد معتادة لها وقع محايد على النفس كالإعلانات والنشرات الجوية. برغم كل الألم الذي يقتات على روحي إلا أنني أخشى أن أعتاد الظلم. أن أصير مثل هؤلاء الزومبي المقززين الذي يبادرون بالتعري ورقص الاستربتيز دفاعا عن الظلمة والمستبدين.

ولذلك فإنني أسأل الله سؤالا واحدا كل ليلة.. يا الله! متى أغيب عن االوعي؟

صدقيني يا سارة حاولت جاهدًا أن أكتب لك شيئًا مبهجًا بعد كل هذا الغياب لكن منعتني صور ضحايا حلب الذين لسبب غامض لم أقو على إعلان تعاطفي معهم. لم أعد أستطيع ان

أمارس ذلك التعاطف السلبي المريح دون أن يصاحبه كثير من التقزز من نفسي. ومن البشر ياسارة.

لماذا لم يخلقني الله "كلبا"؟ ينبح فقط على الغرباء ولا يهاجم بني جنسه إلا إذا أصاب مخه عطب أو مرض ويكون مصيره وقتئذ العلاج أو القتل لا الاحتفاء والتكريم. لابد أن له حكمة في ذلك! لابد أن له حكمة في كل ما يحدث! لكني لا أدركها.. لابد.. غير أن ما أدركه تماما أنه لا يمكن لإنسان سوي أن يشعر بالسعادة والتفاؤل في وسط كل هذا الكم من الدماء والظلم.

وإلى أن يتحقق دعائي وإلى أن تجيبي سؤالي.. لماذا أنت لست معي الآن يا سارة؟

سيظل القلب نابضا بحبك..

فإلى مرة قادمة أختلس خلالها من الدنيا بضع دقائق أمارس فيها فعل الحياة الوحيد وأكتب لك رسالتي التالية.

هذا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة السابعة والاربعون

عزيزتي سارة

مساؤك سكر

اوشكت على اليأس من استعادة قدرتي على الكتابة يا سارة

شهور طويلة مرت ولا شيء يحدث لي سوى أني ازدحم بالكلمات والاسئلة فأتضخم

حاولت، حاولت مرارا ولكنني في كل مرة أمسك الورقة والقلم

أجد الكمات كلها مكررة ومعادة ككل تفاصيل الحياة بدونك

نفس الحزن ونفس الألم ونفس الغربة والضياع.

كل ليلة، بعد أن يتوسد الناس أحلامهم التي لا تتحقق، تخرج إليَّ وحدتي من ذلك الثقب الغائر الذي خلّفه غيابك في روحي، تخرج كمصاص دماء هائل يقتات ليلا على أعصابي وشراييني وأنفاسي. توصد كل مسام الكتابة لدي فأبتهل إلى الله أن يمن عليَّ بالفرج، أدعوه أن يحلل عقدة لساني.

لكنني أتذكر حديث ضعيف عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى فيه عن الدعاء بالصبر لأن فيه سؤال مستتر للبلاء فأسكت.

أقول في نفسي لا بأس لا تستعجل الحزن سيفيض في أوانه

بالأمس استعرت هاتفا نقالا من إبراهيم وأثناء تصفحي للأسماء المسجلة عليه استوقفتني كلمة (بابا) نطقتها ببطء وصوت مسموع كأنني أتذوقها على طرف لساني أصابتني بغصة مريرة في حلقي

لم يتح لي أسجل اسم "بابا" على هاتفي، لم يحمل أبي في حياته هاتفا نقالا. الحق أن أشياءً كثيرة لم يتسن لأبي أن يفعلها، لم يعش في الإسكندرية كما كان يتمنى ولم يتعلم عزف العود ولم يتزوج الفتاة التي أحبها وطوال عشرين سنة عشتها معه لم أضبطه مرة وحيدة متلبسا بفرحة. لم يكن ذلك بسبب ضيق الوقت أو ضيق الحال أو أي ضيق.

تمام، كالموت لا يحتاج الحزن لأسباب مقنعة كي يجثم على الصدور. هو يحدث لأنه يحدث هكذا بمنتهى البساطة.

أتعلمين؟!

من رحمة الله تعالى بالبشر أن هناك غلالة رقيقة تغلف وجه الحياة فتحجب حقيقتها عن الناس وتحفظ لهم قدرتهم على اقتناص بعض لحظات الفرح لكن البعض تصيبهم لعنة ما تجعلهم يخترقون تلك الغلالة ينظرون مباشرة إلى وجه الحياة الحقيقي القبيح يبصرون قسوتها وبشاعتها وزيفها.

كذلك كان أبي ذلك العابد الزاهد الاسمر الرقيق صاحب الابتسامة الحنون الواهنه التي تفضح حزنه أكثر مما تداريه

"ماذا بك"؟

يسأل إبراهيم ذلك السؤال القصير الماكر

فتقذفني الحروف الست بقسوة إلى سراديب الوجع العميقة الملتفة حولي كشرنقة من فولاذ أو كزنزانة بقفل صدئ ضاع مفتاحه منذ ألف عام ويومان

ماذا بي؟

بي وجع يختبئ خلف كل شهيق

بي وطن لم يعد وطن

بي قهر الذين غرقوا في العبارات وقهر الذين نجوا

بي أنين كل الذين رأيتهم يتألمون ولم أفعل لهم اكثر من مصمصة الشفاه وبضع كلمات وفي بعض الأحيان القليلة دمعتين

بي خذلان كل من وثقنا بهم وأودعنا لديهم أحلامنا

بي خيبة أمل تتمدد في صدري ولا يقوى شيء على نزعها

بي قلق أبدي آت من ماض خاو يتسكع باستهتار عاهرة نحو مستقبل يعد بالمزيد والمزيد من اللا شيء

بي دماء تسيل بلا سبب عادل

بي أمهات ثكلي وأطفال يتامى وآلاف المعتقلين

بي جشع الكل تجاه الكل

بي هذا العالم

بي فقر أمينة المزغودة وبؤس خالتي ثريا

بي غربة عماد وموت أبي ووحدة أمي ومرضها

بي غيابك يا سارة

بي غيابك

....

ها أنا قد كتبت

ها هو الفيضان آت

....

"لم كل هذا الحزن رغم أنك تعيش حياة مريحة"؟

سأل ابراهيم أيضا لكنه كان يسأل عماد هذه المرة

سحب عماد نفسًا طويلا من سيجارتة وأخرجه ببطء ثم ألقى بعقب السيجارة على الأرض ودهسها بطرف حذاءه بغل، ثم حكى لنا عن امرأة إنجليزية كانت تشتكي لصديقتها من انتشار

الخبز البولندي وغياب الخبز الإنجليزي في مدينتهم ولما سألتها الصديقة هل هو سيء؟ أجابت السيدة بالنفي وقالت بالعكس مذاقه لذيذ ولكنه ليس خبزنا

رجع عماد بظهره للوراء ونظر للسماء ثم أضاف بإنجليزية متقنة (اتس نوت أورز ذاتس ذا بوينت)

ثم نظر في عينيَّ وقال بنبرة محبطة: ذلك حال المغتربين يعيشون حياة مريحة لكنها ببساطة ليست حياتهم

ترى ما هي حياتنا يا يحيى؟

أطرقت إلى الأرض

لفنا صمت ثقيل

احتضنته

بكينا

لكنني إلى الآن مازلت أبحث عن إجابة لسؤاله

ترى ماهي حياتنا يا سارة؟

إسمعي

قد أتنازل عن إجابة هذا السؤال

لكن ماذا عن إجابة السؤال الأهم

لماذا ياسارة؟

لماذا أنت لست معي الآن؟

فهل هناك أمل أن أحصل عليها قبل رسالتي القادمة؟

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة الثامنة والأربعون

عزيزتي سارة

مساؤك سكر

تمر الأيام والشهور، تفوت السنوات تلو السنوات، يتلاشى العمر أمامنا كشهاب يحترق، ولا شيء يزيد سوى تلك الأشياء التي كنا نتمنى لو فعلناها، القرارات التي أجلتها حيرتنا وترددنا وجبننا حتى فات أوانها، الهوايات التي لم نمارسها خوفا من كلام الناس، الأشخاص الذين تركناهم لدوامة الغياب تبتلعهم حفاظا على كبرياء زائف.

ما الذي منعنا من التمسك بهم كما ينبغي كما يتمسك الأطفال بكفوف أمهاتهم في الأسواق؟

لو أنَّا حتى أتقنَّا الوداع؟

عندما أنقذ فورست جامب صديقه بوب من النيران في الحرب وبينما بوب يحتضر قال له فورست (هاي بوب)

شعر فورست بعدها بالندم وقال إنه لو كان يعلم أنها المرة الاخيرة لكان قال شيئًا آخر، شيئًا أكثر أهمية.

لا بأس.. أظن أنه كان سيندم على أية حال مهما كانت الكلمة التي قالها. كل الكلمات تبدو أقل أهمية ساعة الوداع يا سارة.. كل الكلمات.

لا شيء يناسب الوداع سوى الحضن هو الوحيد القادر على تخفيف الندبة التي يخلفها الوداع في الروح.

لماذا لم تمنحيني ذلك الحضن قبل غيابك يا سارة؟

أليس هناك وسيلة لتمنحينني إياه الآن؟

ثم تغيبين من جديد

في أحد الأفلام الأمريكية قابل البطل حبيبته بعد عدة أيام من مشاجرتهم معا فلم تتذكره! لم تكن تتظاهر بذلك، كانت حقا قد نسيته تمامًا.

تذكرت وأنا أشاهد الفيلم تلك الأغنية التي قلت لي مطلعها فأكملته لك لم تصدقيني وقتها حين أخبرتك أنني لم أسمعها من قبل

لا أدري ما علاقة ذلك الموقف بهذا الفيلم لكنني تذكرته تذكرت أيضا أننا لم نتشاجر قط قبل غيابك فكيف نسيتني إذن؟

ومتى؟

ولم؟

اندهش البطل من موقف حبيبته ولم يصدق أنها نسيته بهذه السرعة ثم اكتشف أن طبيبا في المدينة يستطيع محو الذكريات ليمنح عملاءه حياة جديدة، وعندما سأله عن حبيبته أخبره الطبيب أنها أرادت فقط أن تنطلق.

أنا أيضا اريد أن أنطلق يا سارة.

تتسرب الأيام من بين أصابعي كحبات رمل ساخنه وأنا قابع في نفس البقعة لا أبرحها. أحاول الهرب.. أعدو بكل قوتي، أعدو، وأعدو، وأعدو؛ فاكتشف أني أسير نحو الأسفل. كل الطرق بعدك منحدرات زلقة ودائرية تعيدني إلى نفس المكان.. تعيدني إليك

عندما قرر البطل أن يمحو ذكرى حبيبته هو أيضًا طلب منه الطبيب أن يجمع كل ما يخصها في حياته: الملابس، الهدايا، الأشعار التي كتبها لها، الصور. كل ما قد يذكره بها يجمعه في صندوق ويحضره للطبيب.

تخيلت نفسي في نفس الموقف فشعرت وكأنني كنت أخشى هذا المصير فخبأتك في كل ثنايا حياتي

وجدتك تختبئين بين أصابعي، خلف أذني، في ذلك الثقب الذي حشاه الطبيب في ضرسي، أسفل ضحكتي، تحت جفوني، في تجويف حرف الحاء من اسمي، وراء شجرة الياسمين في حديقتنا، في حقيبة أمي، خلف برواز صورة أبي...

وجدت أن عليَّ أن أجمع حياتي كلها وأضعها في ذلك الصندوق، أو.. أو اطلب من الطبيب أن يقتلني أسهل.

ثم فكرت أنني لا أريد أن أمحوك من أوراق ذاكرتي وأنني فقط أريد إجابة لذاك السؤال الثقيل كشعور اليتم

لماذا يا سارة؟

لماذا أنت لست معي الآن؟

فهل هناك أمل أن أحصل عليها قبل رسالتي القادمة؟

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى

الرسالة التاسعة والاربعون

عزيزتي سارة

مساؤك سكر

ربما أجمل ما في أغاني أم كلثوم يا سارة أنك في كل مرة تسمعينها تكتشفين فيها جمالا جديدا، جملة لحنية رقيقة، كوبليه شديد العذوبة، تنهيدة، آهه. المهم أنك كل مرة تخرجين بمتعة جديدة.

ورغم قناعتي التامة بهذا الأمر إلا أنك لو سألتني قبل يومين عن الجديد الذي قد اكتشفه في رائعة بيرم التونسي "هو صحيح الهوى غلاب" فربما مر بخاطري كل كلمة من الأغنية إلا ذلك الجزء الذي سأكتب لك عنه اليوم

"إزاي يا ترى؟ أهو ده اللي جرى!"

تلك الجملة القصيرة البسيطة التي أحسبها أبلغ ما كتب في وصف الحب بغموضه الساحر الآسر العجيب

قديما قالو: "لو لم يكن سرًا لم يكن حبًا"

والسر هنا لا يعني الكتمان بالطبع يا سارة فالعاشق الحق لا يقوى أبدا على الكتمان، إذ يتبدى الحب في كل التفاتة ملهوفة ناحية الحبيب وفي كل رعدة تسري بخلاياه إذا ما هل

يتبدى في تلك النبرة شديدة الخصوصية التى لا يخاطب بها أحدًا سوى الحبيب. في البهجة التي تشع من مسامه في حضرته. في تلك اللجلجة التي تصيبه إذا ما أتى ذكر الحبيب أمامه على حين غرّة. وحتى في البعد يا سارة لا يقوى العاشق على مداراة حبه إذ تفضحه نظرته الزائغة بحثا عن أثر الحبيب وطيفه ويفيض منه الوله والوجد حتى ليدرك كل من كان له قلب أنه عاشق بالبعد مُبتلٍ.

فما معني "السر" إذن؟

السر هو الغموض التام الذي يميز حالة الحب فجأة وبلا مقدمات يصبح قلبه بين إصبعي الحبيب إن شاء منح فيحلق في سماوات الهناء والسرور وإن شاء منع فيغرق في غيابات الحزن والأسى.

فجأة يتلاشى الزحام والضوضاء، ينكسر الحر، تزهر الأشجار وتصبح جميع الألوان زاهية. متى حدث كل هذا؟ وكيف؟

يحاول العاشق جاهدا ان يتذكر فلا يستطيع بل الأدهى أنه يعجز حتى أن يتذكر كيف كان حاله قبل تلك اللحظة الساحرة كيف كان يشعر؟ وكيف كان يرى العالم؟ لا يدري

وتصبح المسالة ليست عن حياة جميلة وأخرى سيئة أو عن شعور بالسعادة وإحساس بالحزن. بل تصبح المقارنة بين الحب واللا حب كالمقارنة بين الوجود والعدم، بين الحياة والموت.

وكأن حالة الحب هي حالة الحضور الطاغي للروح، حالة الوهج والسطوع، وكل ما سواها يبدو أمامها خافتًا وباهتًا ومهينًا.

ليس ثمة دهشة إذن، لم نجد إجابة لأسئلة الحب سوى تلك العبارة العبقرية

"إزاي يا ترى؟ اهو ده اللي جري! وأنا ما أعرفش.. ما أعرفش أنا"

عدا أن هناك سؤال واحد مازال يمكن الإجابة عليه ذلك أنه ليس فقط عن الحب ولكنه أيضا عن الخذلان

لماذا يا سارة؟

لماذا أنت لست معي الآن؟

فهل هناك أمل أن أحصل علي تلك الإجابة قبل رسالتي القادمة؟

هذا طبعًا إذا سمح الباشا الضابط وتغلب فضوله على غبائه فتركني أكتبها.

المخلص لك دائما..

ي ح ي ى